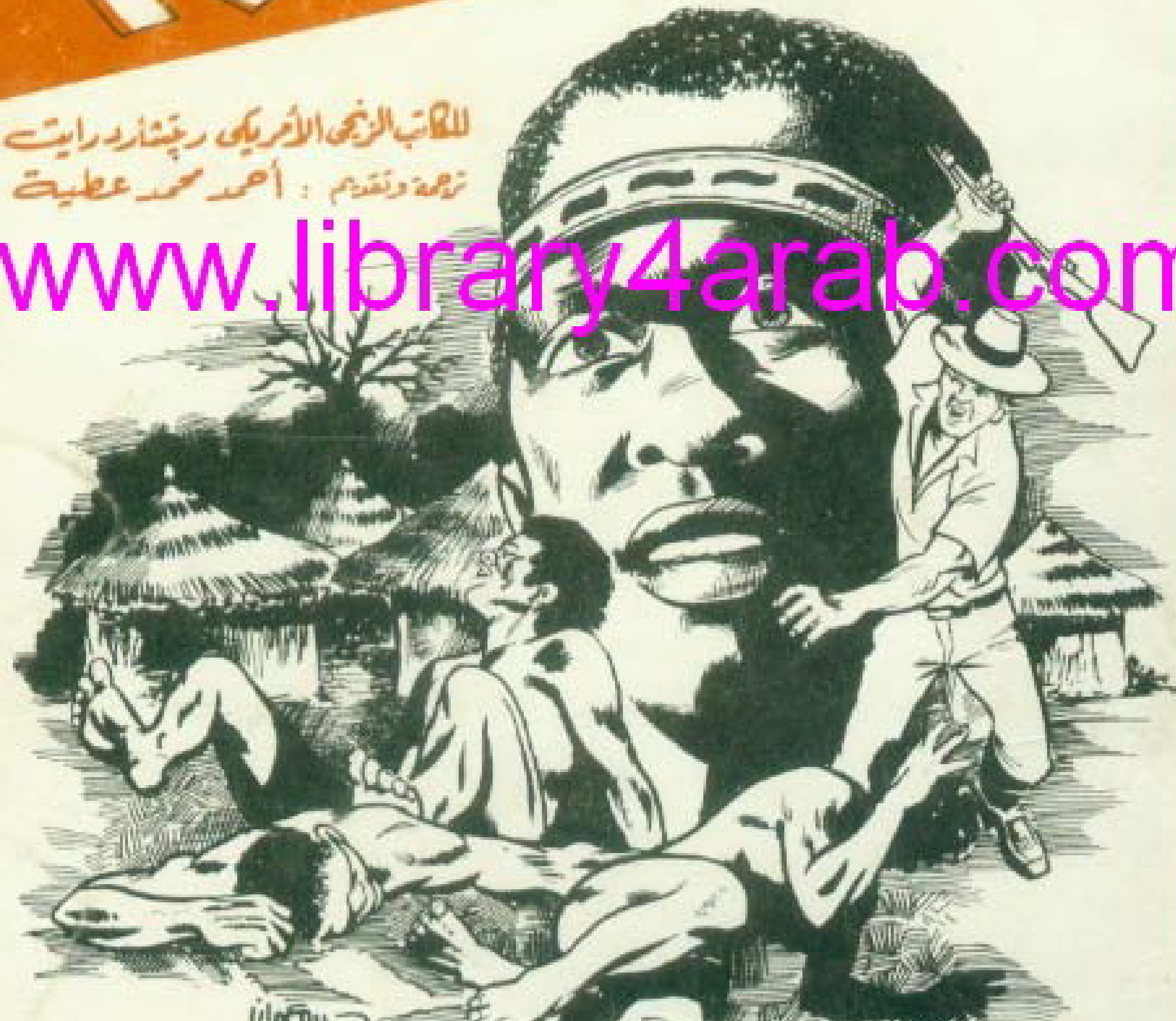
دار
الموقف العربي

أبناء العم توم

للكاتب الزنجي الأمريكي ريتشارد رايت

ترجمة وتقديم : أحمد محمد عطية



أبناء العم توم

للكاتب الزنجي الأمريكي ريتشارد رايت

ترجمة وتقديم : أحمد محمد عطية

دار الموقف العربي
للصحافة والنشر والتوزيع
٣٨ شارع قصر العيني
ت ٢٣٢٥١٤ جمهورية مصر العربية

رقم الايداع ٨٢/٤٣٦٣
مطبعة اخوان مورافتلى
تليفون ٩٠٤٠٩٦

ريتشارد رايت والأدب الزنجي الامريكي

بدا الأب الزنجي الأمريكي بالحكاية الشعبية ، التي نقلها العبيد الأفارقة معهم من افريقيا الى أمريكا بعد اختطافهم في سفن تجار العبيد . وذلك نظرا لسهولة تداول الحكاية شعبياً ، ولتغييرها عن التراث الافريقي والوجدان الافريقي ومزجها بالآلام والهموم الجديدة التي يلاقيها الافريقي في رحلة العبودية وأعمال السخرة تحت وطأة سياط الرجل الامريكي الابيض وقيوده الحديدية. وراجت الحكاية الشعبية بين الزنوج الامريكيين لأنها كانت تحكى همسا ، في تجمعاتهم وجلساتهم ، فتفلت من رقابة الرجل الأبيض ومن تسلطه وسيطرته على مقدرات الرجل الاسود ، بغية قتل روحه وقطع الصلة بينه وبين جذوره الافريقية وتراثه الافريقي . ومن هنا لعبت الحكاية الزنجية دور المقاومة وتحقيق الذات في مواجهة تحديات القهر المسلط من السادة البيض ضد الزنوج ، ماديا وروحيا ، لتحويلهم الى عبيد اقرب الى الحيوانات العاملة في مزارع البيض .

وقد ولدت مأساة الزنوج الأمريكيين في سفن العبيد التي لاقوا فيها ويلات رهيبة من التعذيب بأسياخ الحديد المحماة تكوى اجسادهم ، والقود والاطواق الحديدية تشد اقدامهم ورقابهم ، وفاتحات الفم ونازعات الأظافر ، في رحلات تهلك اكثر من نصف حمولة كل سفينة من العبيد . وقد تجمع من النصف الباقي نحو اربعة عشر مليونا من عدد المختطفين من افريقيا الذى تراوح بين ٣٠ و ٤٠ مليونا من السود . ومن هؤلاء المتبقين تاسس الثراء الامريكي الابيض ، وتكونت معه مأساة الزنوج الامريكيين ، التي ظلت تتفاقم

حتى شهدت الحرب الاهلية الامريكية واعلان تحرير العبيد (١٨٦٣) . غير ان اعلان تحرير العبيد لم يكن اكثر من اعلان رسمي ، ولم يقصد به البيض تحريرا فعليا للزنوج ، بل استهدفوا من ورائه تخليص الزنوج من ربقة أصحاب المزارع البيض في الجنوب لصالح راسمالي الشمال البيض أيضا ، واصطيادهم للعمل في مصانعهم بالشمال باجور زهيدة وفي سخرة جديدة مماثلة لعبودية الجنوب . فلم تكن الحرب الأهلية الأمريكية حربا لتحرير العبيد حقا ، ولكنها كانت صراعا بين راسمالي الشمال واقطاعي الجنوب لتغيير نوع مالك العبيد السود . ولقد استمر شنق الزنوج وحرقهم واضطهادهم واستغلالهم واحتقارهم ومعاملتهم كالحيوانات، من قبل البيض ، حتى اليوم *

وقد عبر الأدب الزنجي الامريكي عن ماساة الزنوج الامريكيين، وانعكست في اعماله الشفوية والمكتوبة مراحل قضية الزنوج من البدايات الافريقية الى التطورات الامريكية ، وحفل الأدب الزنجي الشفوي يصور الحنين لافريقيا ، القارة والاسرة والمشاعر الانسانية، فما اكثر ما فرق تجار العبيد والاقطاعيون البيض بين الاخ واخيه والابن وابيه والزوج وزوجته والحبيب وحبيبه . فجاءت بدايات الأدب الازنجي الامريكي ، في الحكاية الشعبية والاغنية الشعبية والشعر الشعبي ، لتعبر عن مرحلة تجميع الذات وحماية الزنوج من التحول الى مجرد حيوانات تشقى في مزارع البيض .

غير ان هذا الأدب الزنجي الشفوي لم يلبث ان تحول الى ادب مكتوب ، ونما كما وكيفا بعد انتهاء الحرب الاهلية الامريكية

---

* راجع القصة الكاملة لاختطاف العبيد من افريقيا ومأساة الزنوج الامريكيين في كتابنا « دفاع عن الزنوج » الصادر عن الدار القومية بالقاهرة ١٩٦٥ .

واعلان تحرير العبيد ، الذى جــاء كخطوات رسمية فى طريق تطور الزنوج وتحررهم من قيود الرجل الاقطاعى الأبيض الحــديدية ليضعهم فى قيــود الرجل الراسمالى الأبيض الآلية . ولكنه وضــع الأساس الشرعى لنضال الزنوج الأمريكين فى ســبيل الحــرية والمساواة والعدالة والحقوق الانسانية . وبــدا الأدب الزنجــى الأمريكى المكتوب فى التعبير عن الهموم والاشواق الزنجية شــعرا ، لسهولة تلقى الشعر وتداوله وحفظه وامكانياته فى التعبير الانفعالى السريع عن الهموم الآنية واللحظية . ومن ثم تأخر ظهــور الأدب القصصى والروائى الزنجى الى اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين ، لمــا يتطلبه الابداع القصصى والروائى من تركيب وتصميم وبنــاء وعقلانية ووقت ، فى الكتابة والقراءة ، لدى الكتاب والقراء على السواء ، على عكس الحال مع الشعر الذى ينطلق من الوجدان ويتخلق من الانفعال ويسهل كتابته وتوصيله الى المتلقين. وتمثلت بدايــات الأدب القصــصى الامريكى فى قصــص ((شارلز سيستنت)) المتوفى سنة ١٩٣٢ . الا ان هذه البدايات القصصية فى الادب الزنجى الامريكى كانت ضائعة فى خضم التيار العام الطاغى من الشعر الزنجى الامريكى المتدفق بواسطة الشــعراء الزنــوج الامريكين الكبار امثال [illegible]

وجاء ريتشارد رايت ليمثل جماع فن الحكاية والقصة الزنجية الامريكية ، وليبدع اعمالا قصصية وروائية زنجية تتسم بالتقــدم فى الشكل الفنى وفى المحتوى ، فى بناء الشخصيات وفى مواقفهــا ازاء قهر البيض للزنــوج وتطلعاتهــا لتحقيق الحريــة الكاملة والمساواة الكاملة للانسان الزنجى . لذا يعد ((ريتشارد رايت)) بمثابة الضــمير للزنوج الأمريكيين ، او كما وصــفه ((جان بول ســارتر)) ، فى كتابه ((ما هو الادب ؟)) ، قائلا ((ان القــراء السود يمثلون ـــ للكاتب الأسود الكبير ريتشارد رايت ـــ الذاتية، الطفولة ذاتها ، والمصاعب ذاتها ، والعقد ذاتها ، انهم يفهمونه بنصف كلمة بقلوبهم . انه ، فى سعيه الى ان يستنير بشأن وضعه الشخصى ، يبعث النور فى انفسهم . انه يتوســط الحياة التى يعيشونها يوما فيوم بشكل مباشر ، والتى يتحملون المهــا دون

ان يجدوا كلمات يعبرون عن آلامهم ، ويسميها ، ويريها لهم : انه وعيهم ..)) وهذا هو ما كفل لأعمال ريتشارد رايت القصصية والروائية ، النجاح والقبول لدى جماهير القراء ، فطبعت كتبه بعشرات الطبعات وملايين النسخ ! وجعلت منه الكاتب الزنجي الأول . وارسى رايت بقصصه ورواياته وشخصياته الزنجية الجديدة دعائم الأدب القصصي والروائي الزنجي في امريكا . ومن هنا يعد ريتشارد رايت رائد هذا الأدب بلا منازع .

ريتشارد رايت كاتب حر ثائر على الوضع اللا انساني لزنوج امريكا . كاتب صادق ملتزم عانى ماساة قومه واخلص في التعبير عنها ، وتدفقت في كتاباته الصور الواقعية لمعاناة الزنوج الأمريكيين وتطلعاتهم واشواقهم للمساواة الانسانية بالبيض . ولكن الدعوة الى المساواة لا ترضى قلوب وجيوب الرجعيين من دعاة التفرقة العنصرية . فالمكارثية كانت ترى في الدعوة الى المساواة نشاطا معاديا لأمريكا . ولذا احرقت كتب الأدب الأمريكي الحر في مكاتبها الخارجية ، ومن بينها كتب ((ريتشارد رايت)) . وإزاء التهديدات التي تلقاها ((رايت)) في امنه وحياته، اضطر للفرار مع زوجته واطفاله الى باريس ، وترك وطنه حيث ولد في عام ١٩٠٨ في مزرعة بالقرب من ((ناتشز)) بولاية ((مسيسبي)) . وبعد وفاة والده رحلت عائلته الى ممفيس و ((تنسي)) . في عام ١٩٣٤ انتقل ريتشارد رايت الى شيكاغو حيث بدأ العمل ، سنة ١٩٣٥ ، في الاتحاد المركزي للكتاب ومارس نشاطه الأدبي لأول مرة . واخذ يكتب القصص بانتظام ويرسلها الى الصحف حتى ربح جائزة على مجموعة قصصه ((ابناء العم توم)) من مجلة قصصية . وفي عام ١٩٤٠ نشر روايته الأولى ((ابن البلدة)) التي حملت اليه الشهرة والنجاح والاستقلال المادي والفكري . وقوبلت روايته الثانية ((الصبي الأسود)) بمزيد من الاقبال عليها والانتشار . ثم توفي مغتربا في باريس عام ١٩٦٠ .

فجرت « ابناء العم توم » ، اولى اعمال ريتشارد رايت القصصية ، الأدب القصصي والروائي الزنجي الأمريكي ، وقدمت صياغة قصصية جديدة تعتمد على الحوار ومعمارا فنيا جديدا يجمع بين الشكل القصصي والبناء الروائي . وضمت سيرة ذاتية لكاتبها ، تجسدت فيها مأساة الزنجي الأمريكي ومعاناته في ظل سيطرة الرجل الأمريكي الأبيض واضطهاده وقهره ، بالرغم من مرور نحو قرن من الزمان على اعلان تحرير العبيد في أمريكا . كما ضمت مجموعة « أبناء العم توم » خمس قصص طويلة او خمس روايات صغيرة . وفي هذه الترجمة انتقينا سيرة الكاتب ، التي كتبها بعنوان « اخلاقيات الزنجي الأمريكي المذل » او « فلسفة الحياة عند جيم كرو » ، وأهم روايتين من الروايات الخمس : « بج بوى يغادر المنزل » و « عند ضفة النهر » ، لدلالة هذه الأعمال الثلاثة وحسن تمثيلها لأدب ريتشارد رايت ودقة تعبيرها عن مأساة الزنوج الأمريكيين .

و « العم توم » شخصية رمزية للزنوج الأمريكيين ابدعتها الكاتبة الأمريكية « هارييت بيتشر ستاو » في روايتها العظيمة « كوخ العم توم » (١٨٥٢) التي بينت فيها ، بأسلوب انساني مشوق وعطوف ، العذاب الذي يناله الزنوج الأمريكيين في ظل العبودية ، وصورت فيها امثلة لهذا العذاب تقشعر لها الأبدان ، فحركت المشاعر واثارت العواطف الانسانية ضد العبودية والرق ، وقدمت الزنوج كبشر لهم قلوبهم واحساساتهم وعواطفهم وعلاقاتهم الانسانية ، وتسببت في تحريك الحرب الأهلية الأمريكية . ونتجت قوة تأثير الرواية من كونها شهادة لكاتبة امريكية بيضاء لم يقبل ضميرها بشاعات الرق والعبودية التي يكبل بها البيض العبيد السود ، حتى ان الرئيس الامريكي ابراهام لنكولن ، محرر العبيد ، قال لمؤلفتها الروائية « هارييت بيتشر ستاو » عندما التقى بها في عام ١٨٦٢ اثناء الحرب الاهلية: « حسنا يا سيدتي ستاو واني سعيد بأن ارحب بك بوصفك مؤلفة تلك القصة التي احدثت هذه الحرب العظيمة » .

قدمت ((هارييت ستاو)) العم توم كشخصية طيبة متدينة مستسلمة رات الويلات فى عذاب البيض وماتت ... هكذا مات ((العم توم)) الشخصية الرمزية وترك ابنـاءه الزنوج يعانون مرارة الالم الذى عاناه من قبل ابوهم . وفى القصتين المترجمتين يكتب لنا ((ريتشارد رايت)) عما حدث لاثنين من ابناء العم توم . وكم هو بشع ومقزز وفاضح لاكذوبة الحرية الأمريكية والعـدالة الأمريكية وحقوق الانسان الأمريكية . اذ يلاقى الصـبى الزنجى ((بج بوى)) حتفه حرقا بايدى البيض ، فى القصة الأولى المعنونه باسمه ، بينما يقتل الزنجى العجوز ((مان)) ، بطل القصة الثانية، بلا رحمة برصاص البيض ، بعد مطاردات دموية عنيفة يشـترك فيها البيض والكلاب . وهى جرائم بلا عقاب ، لا يكف البيض ، حتى اليوم ، عن ارتكابها ضد الزنوج الأمريكيين المتطلعين الى نيل حقوق الانسان .

((احمد محمد عطية))

القاهرة فى أول ديسمبر ١٩٨٠



فلسفة الحياة عند «جيم كرو»

« جيم كرو » مصطلح يقصد به انموذج الزنجى الامريكى

كانت الكلمة السائدة بين الزنوج ابان الحرب الأهلية فى أمريكا « أنه العم توم » التى تعنى الاضطهاد لهذا النوع الآدمى الأسود الراكع تحت اقدام البيض والذى يعلم مكانه امامهم . واستبدلت هذه الكلمة بكلمة جديدة تحمل معنى جديدا تقول : مات العم توم .

* * *

هل صحيح ما يقولونه عن « تكسى » ؟

هل تظل الشمس ساطعة طوال الوقت ؟

هل تتفتح زهور الماجنوليا أمام كل باب ؟

وهل يظل الناس يتناولون الحلوى حتى لا يستطيعون ابتلاع قطعة واحدة ؟

هل صحيح ما يقولونه عن « سوانى » ؟

هل هذا الجمع من الناس النبلاء حلم ؟

هل يضحكون . هل يحبون . كما يقولون فى كل اغنية ؟

اذا كان هذا صحيحا فهو ما ابتغيه .

« اغنية شعبية »

— ١ —

كان أول درس تلقيته فى كيف أعيش كزنجى عندما كنت لا ازال صغيرا . كنا نعيش فى أركانساس . وكان منزلنا مقاما بجوار خطوط السكك الحديدية . وكان فناؤه الضيق مغطى بقطع من بقايا الفحم الاسود . ولم ينم أى شىء أخضر فى هذا الفناء . كانت اللمحة الوحيدة من الخضرة التى يمكننا رؤيتها بعيدا بجوار الخطوط الحديدية حيث تعيش عليها جماعات البيض . لكن بقايا الفحم كانت تكفينى للعبى ، ولم أنس أبدا تلك الأشياء الخضراء النامية ، وعلى أى حال كانت بقايا الفحم تصلح كأسلحة خفيفة . ففى الامكان دائما شن حرب حامية رقيقة ببقايا الفحم السوداء الضخمة . وما عليك الا ان تنحنى بجوار أعمدة المنزل الحجرية ويداك ممتلئتان بحفنات من مسحوق الرصاص . وتفرغها على أول رأس ذات شعر أسود ناعم تراها من جانب صف آخر من الاعمدة تجعلها درعك الواقى . لقد بذلت ما بوسعك لتنتصر . وكانت تسلية عظيمة .

ولم أتحقق بالمرة من مخاطر لعبة الفحم السيئة هذه حتى .... حدث أن وجدت شلة من الاولاد — أصدقائى — وجدت نفسها مشتبكة فى حرب مع الأولاد البيض الذين يعيشون بجوار الخطوط الحديدية وكالمعتاد صببنا سيلا من الفحم ظانين بأن ذلك سيطوح بالأولاد البيض بعيدا لكنهم قابلوه بمزيد من الزجاجات المكسورة . ضاعفنا من سيل فحمنا المنهمر لكنهم اختبأوا بجوار الأشجار والأسوار وجسور أحواضهم الخضراء المنحدرة . ونظرا لأنه لم يكن لدينا مكان نحتمى به . فقد تقهقرنا الى أعمدة منازلنا الحجرية . وفى أثناء الانسحاب أصابتنى زجاجة لبن مكسورة بجانب الأذن مسببة جرحا عميقا أخذ يدمى بغزارة وأحدث منظر الدم المتدفق على وجهى أثرا سيئا فى معنويتنا . فتركنى زملائى فى المعركة واقفا بلا حراك وسط الفناء وتناثروا متجهين الى منازلهم . وشاهدنى جار طيب وأسرع بى الى طبيب حاك لى ثلاث غرز فى رقبتى .

جلست على أطراف تلمى . ممرضا جرحى ومنتظرا عودة أمى من عملها وأحسست بأن جورا خطيرا قد نالنى . لم يكن هناك

شيء ضار في القتاء قطع الفحم ، فاقصى ما تسببه قطع الفحم من اذى هو ان تخلف تورما ، لكن الزجاجات المكسورة كانت خطيرة فهى تخلفك ممزقا ، داميا ، وفاقد الأمل .

عندما هبط الليــل . عادت امى من مطعم البيض . فاندفعت هابطا الى الشارع لاقابلها . وشعرت في اعماقى بأنها ستفهم كل شيء . وكنت اعرف انها ستخبرنى بالضبط بما يجب على ان افعله بعدئذ . فتعلقت بيدها وحكيت لها ــ بسذاجة ــ القصة بأكملها. نفحصت جرحى ثم صفعتني بكفها وسألتنى :

ــ كيف لم تختبيء ؟ ما الذى اخرجك بعيدا لتتعارك ؟

كنت محطما واخذت اصرخ باعلى صــوتى . واخبرتها والرغاء يتصــاعد حول فمى بانه لم يكن لدى اشــجار او اسوار لأختبيء بجانبها . ولم يكن هناك شيء استطيع ان استخدمه كخنــدق . ولا يمكن ان تطوح بقذائفك بعيدا عندما تكون مختبئا بجوار اعمدة منزل حجرية . فاخذت غطاء برميل خشبى ودفعتنى الى المنزل . واجلستنى على ركبتى واوثقتنى بحبل وظلت تضربنى حتى انتابتنى حمى بلغت درجتها اثنتين بعد المــائة . وضربتنى على مؤخرتى بغطاء البرميل وبينما كان جلدى لا يزال ينضح بالألم اخذت تقص على نوادر « جيم كرو » (الزنجى المضطهد بين البيض) الحكيمة. فلــم اكن ابدا ابــدا لا تعــارك مع البيض مرة ثانيــة ــ وتحت اية ظروفــوقد كانوا مصيبين تماماًفى قذفى بزجاجة اللبن المكسورة.
لم اكن اعلم بانها تعمل في مطاعم البيض الحارة لتحصل على تعينها على العناية بتربيتى ؟ الم اكن اذهب لأتعلم لاصــبح ممتازا ؟ وقالت لى انها لا تستطيع ان تقلق نفسها بمعاركى. نهت نصائحها باخبارى باننى يجب ان اشكر الله طوال ما حييت على انهم لم يقتلونى .

وظللت اهذى طوال هذه الليلة ولم استطيع النــوم . وكلما اغمضت عينى رأيت وجوها بيضاء قبيحة منبثقة من سقف الحجرة محدق في بعيون شريرة .

وابتداء من هذا الوقت فصاعدا . اختفت جاذبية فناء منزلنــا الفحمى وصــارت الأشــجار الخضراء والأســوار المنسقة . الاحواض ذات الأزهار المثمرة صارت مجرد علامة . وحتى اليوم

عندما افكر فى البيض اجد الخطوط الحادة المحيطة بمنازل البيض محاطة بالأشـجار وأحواض الزهور والأسوار لا تزال راسخة بعض الشىء فى قرارة عقلى . وخلال السنين اخذت هذه الاشياء تنمو فى دائرة مميزة من الخوف .

ومضى وقت طويل قبل أن أصبح على علاقة وثيقة مع البيض مرة ثانية . انتقلنا من أركانساس الى المسيسبى . وهنا اصبح لدينا حظ سعيد بالا نعيش بجوار خطوط السكك الحديدية أو ملتصقين بجيران بيض . سكنا فى قلب دائرة السود المحلية . كانت هناك كنائس للسود وقسس سود ومدرسون سود . وبقالون سود وموظفون سود . فى الحقيقة كان كل شىء أسود تماما حتى اننى لمدة طويلة لم افكر فى البيض المسالمين فى فترات طويلة قاسية . لكن هذا لم يكن من الممكن ان يستمر الى الابد . فكلما ينمو الانسان يأكل مزيدا من الطعام وتزداد تكاليف ملابسه . فعندما اكملت تعليمى المتوسط . كان على أن اذهب لأعمل.ولم تتأخر امى طويلا فى تزويدى باحتياجاتى والبسى ، وهى فى عملها بالمطبخ .

لا يوجد سوى مكان واحد حيث يستطيع الصبى الأسود الذى يعرف اية حرفة ، أن يجد عملا . وهذا يتوافر حيث المنازل والوجوه بيضاء حيث الأشجار وأحواض الزهور والاسوار خضراء كان عملى الاول فى شركة لصناعة النظارات فى جاكسون بالمسيسبى وفى صباح اليوم الذى طلبت فيه . وقفت مشدودا ونظيفا أمام المدير مجيبا على كل أسئلته بكلمتين واضحتين :« نعم يا سيدى » « لا يا سيدى » وكانت حريصا على نطق «يا سيدى» بكل وضوح حتى يعرف أننى مهذب واننى اعلم اين انا . كما اعلم انه رجل أبيض . واردت هذا العمل لدرجة سيئة .

وتفحصنى كأنما يختبر كلبا أنيقا مهدى اليه . وسألنى بدقة عن دراستى وبمزيد من الدقة عن مقدار ما تعلمته من الحساب . وبدا مسرورا جدا عندما اخبرته باننى تلقيت دروس الجبر لمدة سنتين . سألنى :

— ياغلام ،ما مدى حبك لمحاولة تعلم شىء مما يدور حولك هنا؟

فاجبته بسعادة :

— اننى لأحب ذلك كثيرا يا سيدى .

كانت لدى تخيلات فى شق طريقى فى الحياة فحتى الزنوج لهم تخيلاتهم .
قال :
ــ حسنا تعال :
فتبعته الى المصنع الصغير .
وقال لرجل ابيض فى حوالى الخامسة والثلاثين من عمره :
ــ « بيز » هذا « ريتشارد » انه سيعمل لحسابنا .
فنظر الى « بيز » وأومأ برأسه .
واقتادنى الى صبى أبيض فى حوالى السابعة عشرة :
ــ « مورى » هذا ريتشارد الذى سيعمل لحسابنا .
فأثنى على مورى قائلا :
ــ ماذا ترى فى ذلك يا غلام .
أجبته : رائع .
واصدر المدير تعليماته الى هذين الاثنين ليساعدانى ويعلمانى ويعطيانى أعمالا أؤديها ويتركانى اتعلم ما استطيع تعلمه فى أوقات فراغى .
كان أجرى خمسة دولارات فى الاسبوع .
وعملت بجد محاولا أن احوز الرضا . ومنذ الشهر الأول وفقت فى عملى تماما وبدا لى أن كلا من بيز ومورى يحباننى . لكن شيئا كان يضايقنى . وظللت أفكر فيه . فلم اكن اتعلم اى شىء ولم يتطوع احد لمساعدتى . وعندما ظننت أنهما نسيا ما يجب على من تعلم بعض الشىء عن آلات صناعة المصابيح الزجاجية . سألت مورى ذات يوم أن يحدثنى عن العمل . فاحمر كيانه وسألنى :
ــ ما الذى تريد أن تفعله ايها الزنجى . كن مهذبا !
فقلت :
ــ اننى الآن احاول أن اكون مهذبا .
ــ حسنا . لا تحاول . اذا كنت تعرف ما يفيدك .
كنت متحيرا . فيما لم يكن يريد أن يساعدنى فقط كما اعتقدت فذهبت الى بيز .
سألنى بيز وقد تصلبت عيناه الرماديتان :
ــ قل لى هل انت مجنون أيها اللقيط الاسود !
فتحدثت مذكرا أياه بما قاله المدير من انه يجب منحى فرصة لاتعلم بعض الشىء .

— أيها الزنجى اتظن انك أبيض . الا تظن ؟
— لا يا سيدى .
— حسنا انك تفعل تماما كما يفعل الرجل الابيض .
— لكن يا مستر بيز قال المدير ..
فسدد بيز قبضته الى وجهى قائلا :
— ان ما حولك هنا هو عمل الرجل الأبيض ويحسن أن تراقب نفسك .

ومنذ ذلك الحين تغيرت معاملتهما . فلم يعودا يلقيان الى بتحيـــة الصـــباح . وعندما اكون بطيئا قليلا فى اداء عمل ما . كنت اسمى بالاسود الكسول ابن الكلبة .

وفكرت مرة فى أن اقص كل هذا على المدير . لكن مجـــرد الفكرة بما قد يحدث لى اذا علم بيز وموري بأننى شكوت أوقفنى . وعلاوة على هذا فان المدير رجل ابيض أيضا .. فما الفائدة ؟

واكتملت حلقات الحوادث فى ظهر يوم صيف . نادانى بيز الى المنضدة التى يمارس عليها عمله . وكى أصل اليه كان على أن أذهب بين منضدتين ضيقتين واقف مسندا ظهرى الى جدار .
قلت :
— نعم يا سيدى .
ابتدأ بيز حديثه بسرور دون أن يرفـــع نظره عن عمله قائلا :
— ريتشارد اريد أن اسألك عن شيء ما .
فقلت مرة ثانية :
— نعم يا سيدى .
قفز مورى اليها سادا الممر الضيق بين المنضدتين وثنى ذراعيـــه محدقا فى برزانة .

قلبت النظر من شخص الى الآخر . شاعرا بأن شيئا ما سيحدث.

فقلت للمرة الثالثة :

ــ نعم يا سيدى .

فرفع بيز نظره لأعلى وتكلم بمنتهى البطء .

ــ ريتشارد أخبرنى مستر مورى هنا بأنك ناديتنى باسم بيز مجردا .

فتصلبت وبدت هوة تفتح من داخلى . عرفت أن هذه هى بداية المعركة . كان يعنى اننى فشلت فى مناداته بمستر بيز ، نظرت الى مورى . كان قابضا على قضيب من الصلب بين يديه . وفتحت فمى لأتكلم لأحتج لاؤكد لبيز أننى لم اناده ابدا ببساطة باسمه مجردا من الالقاب بيز واننى لم يكن لدى ابدا قصد بان افعل ذلك عندما جذبنى مورى من ياقتى ضاربا برأسى فى الحائط .

زمجر مورى كاشفا عن أنيابه :

ــ الآن . كن حريصا أيها الزنجى فقد سمعتك تناديه بيز مجردا . والآن اذا قلت انك لم تفعل ذلك فانك اذن تسمينى كاذبا . انظر . ولوح بالقضيب الصلب مهددا .

اذا قلت لا يا سيدى مستر بيز انا لم اناديك ابدا بيز مجردا فاننى بذلك اكون قد سميت مورى آليا كاذبا . واذا قلت نعم يا سيدى مستر بيز لقد سميتك ببيز بلا القاب فاننى أكون قد اقترفت اثما كبيرا بتوجيه اسوأ اهانة يمكن أن يوجهها زنجى الى رجل أبيض فى الجنوب . فوقفت مترددا محاولا أن اكون اجابة طبيعية .

قـــال بيز :

— ريتشارد سأسألك سؤالا .

كان الغضب قد بدأ يتسلل الى صوته .

فقلت بحـــذر :

— لا اذكر انني سميتك بيز مجـــردا يا مستر بيز . واذا كنت قد فعلت فانني واثق انهـــا لا تعني ..

— انت أيها الاسود ابن الكلبة . لقد سميتني بيز بلا لقب اذن ؟

وظل يصفعني حتى ملت جانبا على منضدة كان موري واقفـــا فوق رأسي قائلا :

ألم تسمه بيز ؟ اذا قلت انك لم تفعل سأمزق أمعـــائك الدقيقة بهذا القضيب . أيهـــا العجـــوز المـــاكر . لا يمكن أن تســـم رجلا أبيض بالكذب ، والآن أخرج بالكذوبتك . ايهـــا الاسود ابن الكلبة.

فشحب لوني ورجوتهما الا يضايقاني . وكنت أعلم ما يريدانه . أن اغادر المصـــنع .

فوعدت قـــائلا :

سأغادره كلية الآن .

فمنحاني دقيقـــة لمغـــادرة المصنع . وحذرت من أن اشاهد مرة أخرى او أن أخبر المدير .

وذهبت .

وعندما أخبرت عشيرتي في المنزل بما حـــدث اعتبروني غبيا . واخبروني بأنني يجب الا أحاول مرة ثانية تجـــاوز حدودي . فعندما

تعمل من أجل البيض كما قالوا . يجب أن تتمسك ببقائك فى مكانك اذا أردت أن تظل تعمل .

— ٢ —

استمر تعليمى « كجيم كرو » فى عملى التالى الذى كان حمالا فى مخزن ملابس . وفى ذات صباح بينما كنت ألمع النحاس الامامى هبط المدير وابنه ذو العشرين عاما من عربتهما . وبنصف ركلة ونصف شدة أدخلا امرأة زنجية داخل المخزن ونظر جندى بوليس كان واقفا فى الركن وهو يلف عصاه الليلية وأخذت أراقب بعينى من الركن دون أن ألمع النحاس بقطعة الشامواه التى بيدى . وبعد دقائق قليلة سمعت صرخات عصبية آتية من مؤخرة المخزن . وأخيرا تدحرجت خارجة دامية صارخة ممسكة بمعدتها . وعندما وصلت الى نهاية المخزن امسك بها رجل البوليس واتهمها بالسكر . وبهدوء لاحظته وهو يلقى بها فى عربة بترول .

عندما ذهبت الى مؤخرة المخزن كان المدير وابنه يغسلان أيديهما عند حوض المياه . كانا يبتسمان . كانت الأرض غارقة بالدماء وممتلئة بقصاصات الشعر والملابس . ولابد اننى ظهرت بشكل من روع لهذا المشهد ، حتى أن المدير صفعنى على ظهرى وقال ضاحكا :

— يا غلام . هذا ما نفعله بالزنوج عندما لا يريدون دفع فواتير حسابهم . ونظر ابنه وابتسم قائلا :

— خذ . هذه سيجارة لك .

ولم أعرف ماذا افعل بها لكننى اخذتها.واشعل سيجارته وامسك بعود الثقاب لاشعل سيجارتى . كانت هذه لمحة من الرقة تعبر

بأنهما رغم ضربهما للعجوز المسكينة فانهما لن يضرباني اذا عرفت فقط كيف احتفظ بفمي مغلقا .

قلت :

— نعم يا سيدى .

ولم أسأل اى أسئلة .

وبعدما ذهبا جلست على طرف صندوق مربط فى الارض الدامية حتى انتهت السيجارة .

وفى هذا اليوم عند الظهر بينما كنت أتناول طعامى فى حلقة الزملاء أخبرت زملائى الزنوج الحمالين بما حدث . فلم يبد على اى منهم الدهشة . وسألنى زميل بعد ان ابتلع لقمة كبيرة وتحول الى قائلا :

— ماذا ، هل هذا كل ما فعلاه بها ؟

فسألت .

— نعم . ألم يكن ذلك كافيا ؟

— حسنا . يا رجل لقد كانت كلبة محظوظة .

وقال وهو يغمر شفتيه فى الطعام السائل :

— يا للجحيم انه لأمر غريب جدا انهما لم يرقداها عندما صارا داخل المخزن .

— ٣ —

كنت اتعلم بسرعة . لكن ليس بسرعة كافيـــة . وفى ذات يـــوم بينما كنت اسلم الحزم فى الاحيـــاء خرقت عجلة دراجتى . فسرت طوال الطريـــق الحار المغبر غارقا فى عرقى وساحبا دراجتى من عجلة القيـــادة .

وتباطأت دراجـــة بجانبى . ونادانى رجل ابيض قائلا :

— ماذا حدث يا غلام ؟

فأخبرته بأن دراجتى كسرت واننى كنت عائدا على الاقـــدام الى البلدة .

قـــال :

— هذا فى منتهى السوء . اركب العربة السريعة .

واوقف السيارة . وامسكت جيدا بدراجتى بيد واطبقت بالاخرى على جانب الســـيارة .

— كل شىء معد ؟

أجبتـــه .

— نعم يا ســـيدى .

وواصلت العربة سيرها . كانت ممتلئة بشبان بيض . كانـــوا يشربون وراقبت « القياسكا » وهى تمر من فم الى فم .

سأل احـــدهم :

— أتريد أن تشرب يا غلام ؟

فضحكت عندما صفعت الريح وجهى . وبطاعة فطرية لنصائح أمى الاخلاقية النضرة قلت :

ـ آه . لا .

خرجت الكلمات من فمى بصعوبة قبل أن أشعر بشىء صلب بارد يتدفق بين عينى . كاد تتزجاجة ويسكى فارغة ورايت النجوم . وسقطت متراجعا فى العربة الجارية فى تراب الطريق ، واشتبكت قدماى بأسلاك دراجتى الصلبة ، واطل الرجال البيض ووقفوا حيث كنت .

سألنى الرجل الذى ضربنى :

ـ أيها الزنجى الم تتعلم تصرفا افضل من هذا بعد ؟ الم تتعلم أن تقول يا سيدى عندما تخاطب رجلا ابيض ؟

وبغباء جمعت كل قواى ونهضت على قدمى كانت كوعاى وسقاى ينزفان دما . فتجمعت القبضات وتقدم الرجل الأبيض وركل دراجتى بعيدا عن الطريق .

قال أحدهم :

ـ آه . أترك اللقيط وحده . لقد نال كفايته .

ووقفوا ينظرون الى فمسحت عظام ساقى محاولا وقف تدفق الدم . وشعروا دون شك بنوع من الشفقة المزوجة بالاحتقار . لأن احدهم سألنى :

ـ اتريد الركوب الى البلدة الآن أيها الزنجى ؟

هل تعتقد انك تعرف الكفاية لتركب الآن ؟

فقلت ببساطة :

— أريد أن أمشى

ربما كان تأثير هذه العبارة مضحكا . فضحكوا .

— حسنا . امش أيها الاسود ابن الكلبة .

وعندما تركونى أراحونى بقولهم :

— أيها الزنجى يجب أن تكون مسرورا لأنك تكلمت بهذه الطريقة ولم تنلك اللعنة . انك لقيط محظوظ لأنك اذا كنت قد قلت هـــذا الكلام لأى شخص آخر لصرت فى عداد الزنوج الأموات .

— ٤ —

الزنوج الذين عاشوا فى الجنوب يعرفون الفزع الذى يحـــدث عند الامساك بالزنجى وحيدا وسط الشوارع فى أحياء البيض بعد غروب الشمس فى وضع بسيط كهذا فان حالة الزنجى فى امريكا تكون مميزة بوضـــوح . فبينمـــا كان الغرباء البيض — ربمـــا — يتخذون طريقهم وسط هذه لاالحياء محاولين الحصول على منزل فانهم يستطيعون أن يمروا دون أن يكونوا ملحوظين.لكن لون جلد الزنجى يجعله مميزا بسهولة . ويجعله موضعا للشكوك ويضعه فى مأزق بلا دفاع .

ففى ليلة متأخرة ليوم سبت كنت اسلم بعض الحزم الى احيـــاء البيض . وكنت ادير دراجتى عائـــدا الى المخزن بأقصى سرعـــة ممكنة . عندما حـــادت عربة بوليس عن الطريق متجهة نحـــوى ودفعتنى داخل الرصيف . وامرنى رجال البوليس قائلين :

— أنزل وأرفع يديك .

ففعلت فتسلقوا خارجين من السيارة ببنادق معدة وسحن مقلوبة وتقدموا ببطء وامرونى :

— ابق ساكنا .

فرفعت يدى لأعلى ارتفاع . وبحثوا فى جيوبى وحزمى . وبدوا غير مكتفين بهذا عندما لم يتمكنوا من ضبط ما يشكل جريمة . وأخيرا قال لى أحدهم :

— أيها الصبى . قل لمديرك الا يرسلك خارجا فى احياء البيض بعد غروب الشمس .

وكالمعتاد قلت :

— نعم يا سيدى .

— ٥ —

كان عملى التالى كخادم صالة فى فندق وهنا اتسع تعليمى كـ « جيم كرو » وتعمق . فعندما يكون الخدم مشغولين كنت أنادى غالبا لأساعدهم ولما كانت أغلب الحجرات فى الفندق تشغلها العاهرات فكنت كثيرا ما أنادى لأحمل اليهن الخمر والسجائر . وكن عاريات معظم الوقت . ولم يكن يضايقن بخصوص الملابس حتى ولا لوجود الخدم . عندما تدخل فى حجراتهن يطلب اليك أن تخلع ما يستر عراهن مقابل « بقشيش » ما دامت رؤيتهن لا تثير دهشتك أكثر مما تفعله زهرية زرقاء أو بساط احمر . فوجودك لا يثير فيهن أى أحساس بالخجل لأنه لا ينظر اليك كانسان . فاذا كن وحدهن . يمكنك أن تختلس اليهن نظرات

جانبية خاطفة من عينيك . لكن اذا كن يستقبلن رجالا فلا تبـــدو من جفونك هزة واحدة .

وأذكر حادثا حيا . شغلت أمراة جديدة بيضاء الجلد وشقراء حجرة فى الطابق الذى أعمل به . فأرسلت فى طلبى لاقوم بخدمتها كانت فى الفراش مع رجل ثقيل السـحنة . وكان الاثنان عاريين وبلا غطـــاء . وقالت انها تريد بعض الخمر وانزلقت من السرير خــرت على الأرضــ لتحضر النقــود من درج دولاب الملابس مرقبتها . فســألنى الرجل الأبيض . رافعا نفسه على كوعيه :

ــ أيها الزنجى ما الذى ــ بالجحيم ــ تنظر اليه ؟

فأجبت وأنا أنظر لأعماق أميال فى جدار الحجرة الاملس :

ــ لا شىء .

قـــال :

ــ أحفظ عينيك فى مكانهما اذا أردت أن تظل سليما .

ــ نعم يا سيدى .

ــ ٦ ــ

كان أحد خدم الفندق ممن أعرفهم فى هذا الفندق على عـــلاقة صداقة وطيدة باحدى الوصيفات الزنجيات وعندما كانت السماء صحوة صعد البوليس الى منزله وقبضوا عليه متهمين اياه باقامة علاقة غير شرعية ، وأقسم المسكين بأنه لم يقم أى عــلاقة غير شرعية بالفتـــاة فلم يعيروا كلامــه أدنى انتبـــاه واقتادوه ليتزوجها

وعنــدما وصل الطفــل اتضح بخفة لون البشرة ان ايا من الاثنين المفترى عليهمـــا ، ليس من الأبوين الشرعيين . وجعل الرجـــال البيض حول الفندق منها نكتة كبيرة . فروجوا اشاعة بأن بعض البقرات البيضـــاء لابد انها أصابت الفتاة المسكينة بجرح مميـــز بينما كانت تحمل الطفل . واذا كنت فى مكانهم عندما أذيع هـــذا التعليل . كان عليك أن تضحك .

— ٧ —

قبض على احد خدم الفنــدق فى الفراش مع عاهرة بيضـــاء وضرب حتى تفجرت شرايينه وطرد الى خارج البلدة . وبعد حدوث هذا فى الحال ، جمع جميع خدم الفندق وخدم الصـــالات ، جمعنا معا وحذرنا وكان علينا أن نفهم أن الصبى الذى ضرب كان لقيطا قويا محظوظا . وارغمتنا على السكوت حقيقة أن ادارة الفنــدق لن تكون مسئولة فيما بعد عن حياة الزنوج من مثيرى المتاعب . فسكتنا .

— ٨ —

فى ذات ليلة بينما كنت على وشـــك العودة الى المنزل قابلت أحدى الخدم الزنجيات . كانت تسكن فى جهتى وهبطنا لنســير جزءا من الطريق معا . وما أن مررنا بجندى المراقبة الليلى الأبيض حتى ضرب الخادمة على مؤخرتها فاستدرت حولى مذهولا . ونظر الى جندى المراقبة نظرة طويلة قاسية . وفجأة جذب بنــدقيته وسألنى :

— أيها الزنجى الا تشبهها ؟

فترددت .

فسأل ثانية . وقد خطا طويلا :

غمغمت :

ــ نعم يا سيدى .

ــ تكلم مثلها . اذن .

قلت ما تمكننى به شجاعتى من عدم الرهبة :

ــ أوه . نعم يا سيدى .

وسرت خارجا مع الفتاة خجلا من مواجهتها . فتماسكنا سويا وقالت :

ــ لا تكن غبيا . انك لا تستطيع أن تفعلها .

ان لجندى المراقبة هذا ان يفخر بقتله زنجيين فى حالة دفاع شرعى .

الا أنه رغم كل هذا كانت حياة الفندق تجرى برقة مدهشة . وكان من المستحيل على الغريب أن يكتشف أى شىء فالخادمات وخدم الفندق وخدم الصالة كانوا جميعا يبتسمون . كان عليهم أن يفعلوا ذلك .

ــ ٩ ــ

لقد اتقنت دروس « جيم كرو » جيدا حتى اننى احتفظت بعمل الفندق الى أن غادرت « جاكسون » الى « ممفيس » وفى ممفيس حدث أن اخترت لعمل فى فرع شركة النظارات . كنت مؤجرا . ولسبب ما بقدر ما عملت هناك لم يحاولوا أبدا اثارة ماضى ضدى .

وهنا أتخذ تعليمى كـ « جيم كرو » شــــكلا مختلفا تماما لم يكن بالغ القسوة بل قسوة ناعمة . هنا تعلمت أن أكذب وأن أسرق وأن أخدع . تعلمت أن العب ذلك الدور المزدوج الذى يجب على كل زنجي أن يلعبه اذا أراد أن يأكل وأن يعيش . فمثلا ، كان من الصــــعب غالبا أن تجد كتـــابا تقـــرأه . فقد كان مقررا أنه بعد ما يتجرع الزنجى ذلك التعليم المدرسى القليل فى الولاية فانه لم تعـــد به حاجة للكتب . كنت دائما اقترض الكتب من الرجال فى العمل . وفى يوم أنست فى نفسى الشجاعة الكافية لاطلب من احد الرجال أن يسمح لى بأخذ الكتب من المكتبة تحت أســـمه . وكان أمرا مدهشا ، أن يوافق . ولم أصدق ، بل اعتقدت أنه وافق لأنه رومانى كاثوليكى ويحس عطفا غامضا للزنوج لكونه هو نفســـه من عوامل الكراهية . وحصلت على الكتب ، وأنا مسلح ببطاقة استعارة بالطريقة الآتية : كنت أكتب مذكرة لأمين المكتبة ، قائلا : أرجوك دع هذا الصبى الزنجى يأخذ الكتب الآتية ، وأوقع عندئذ باســـم الرجل الأبيض . كلما ذهبت الى المكتبة ، كنت أقف أمام المكتب ، والقبعة فى يدى ، محاولا أن أظهر كمن لا يحب الكتب قدر الامكان . وعندما أتسلم الكتب المطلوبة كنت أخذها الى المنزل . واذا كانت الكتب التى فى القائمـــة معارة خـــارج المكتبة ، كنت أنسحب الى الممر ، وأزور بطاقة جديدة . ولم أعط أى فرصـــة للكتبى الأبيض كى يخمن بما يطلبه الرجل الأبيض الوهمى ليقرأ . فبلا ريب اذا شك أحد المستعيرين البيض فى أن بعض المجلدات التى يحبونها كانت فى منزل زنجى فلم يكونوا ليقبلوا ذلك لحظـــة واحدة .

كانت قوة مصنع شركة النظارات فى « ممفيس » أضخم بكثير من مثيله فى « جاكسون » وأكثر تمدينا . فعلى الأقل كانوا يحبون التحدث وقد يشتركون فى محادثة الزنجى ومساعدته بقدر ما يمكن

وبهذا وجدت أن هناك موضوعات كانت بعيدة عن مستوى نظر الرجل الأبيض ، ومن بين الموضوعات التى لا يحبون الخوض فيها مع الزنوج كانت هذه الموضوعات : « النساء الامريكيات البيض، الكوكلوكس كلان(١) ، فرنسا وكيف أن الجنود الزنوج ناجحون هناك ، النساء الفرنسيات ، جاك جونسون ، الجزء الشمالى بأكمله من الولايات المتحدة الحرب القاسية ، ابراهام لنكولن(٢) جرانت الولايات المتحدة(٣) الجنرال شيرمان ، الكاثوليك ، البابا ، الحزب الجمهورى العبودية ، المساواة الاجتماعية ، الشيوعية ،

---

(١) الكوكلوكس كلان » ، عصابة ارهابية لارهاب الزنوج وقتلهم شنقا على فروع الاشجار ، تكونت فى أعقاب حرب تحرير الزنوج فى أمريكا سنة ١٨٦٥ ويرتدى أعضاؤها الطراطير مرسوما عليها الجماجم بالفوسفور شعوذة وارهابا للزنوج ولها فروع فى جميع انحاء الولايات المتحدة مازالت تمارس نشاطها الارهابى الى اليوم .

(٢) « ابراهام لنكولن » أول رئيس أمريكى ينجح على أساس تحريم الرق ن الولايات الجنوبية ، فى ٤ من نوفمبر ١٨٦١ ، مما تسبب فى نشوب الحرب الاهلية فى الولايات المتحدة ، وانتهت بانتصار قوى التحرر على أنصار العبودية . وفى أثناء المعارك الحربية أصدر « لنكولن » اعلان تحرير العبيد الشهير الذى جاء فيه « انه فى اليوم الاول من شهر يناير سنة ١٨٦٢ ، يصبح جميع الاشخاص الذين يعاملون كعبيد فى أى ولاية أو جزء معين من ولاية يكون سكانها أو سكانه فى ثورة ضد الولايات المتحدة ــ يصبحون منذ ذلك الحين والى الابد أحرارا » .

(٣) الجنرال جرانت ، القائد العام الذى أحرز النصر فى حرب تحرير العبيد وقد سمى جرانت الولايات المتحدة لان أول حرف من كل من اسميه يشبه أول حرف من كلمتى الولايات المتحدة (باللغة الانجليزية) .

الاشتراكية ، التعديلات الـ ١٣ والـ ١٤ للدستور(١) أو أى موضوع للمعرفة اليقينية أو الدفاع الشرعى الانسانى عن قضية الزنوج ، كانت الموضوعات الأكثر رواجا هى الجنس والعبادة .

كانت هناك أوقات عديدة عندما كان على أن أختبر مجموعة من سبل المهارة فى الابتعاد عن المتاعب . انها عادة جنوبية تلك التى تقضى بأن يخلع كل الرجال قبعاتهم عندما يدخلون المصعد . وعلى الأخص بالنسبة لنا نحن السود بما يجب علينا من اطاعتها بقسوة قاسية . وفى يوم خطوت داخل المصعد وذراعاى ممتلئتان بالحزم . فكنت مجبرا على الركوب وقبعتى فوق رأسى . فحدق فى رجلان أبيضان ببرود . ثم رفع أحدهما قبعتى برقة ووضعها على ذراعى الممتلىء بالحزم . والآن فالاجابة المعقولة غالبا بالنسبة لزنجى فى مثل هذه الظروف هو أن ينظر الى الرجل الأبيض بنظرة جانبية ويبتسم . ولكى تقول : أشكرك . ستجعل الرجل الأبيض يعتقد انك فكرت بأنك تتقبل منه خدمة شخصية . فلمثل هذا العمل رايت زنوجا يتلقون ضربة على الفم . ولما وجدت الاجابة الأولى كريهة تماما ، والثانية خطيرة ، ضربت على نغمة معقولة جاءت سليمة بين هاتين الاجابتين المتطرفتين . وفى الحال ، بمجرد ما رفعت قبعتى تظاهرت بأن حزمى كانت على وشك أن تنهال ، واظهرت ألما عميقا باحتفاظى بها على ذراعى ، وبهذه الطريقة المبتكرة تجنبت الظهور بمعرفة خدمته ، وعلى الرغم من الظروف المعادية ، فقد أفتديت بقايا ضئيلة لكبرياء شخصى .

---

(١) التعديلات التى اضافها الرئيس الامريكى « ابراهام لنكولن » الى الدستور ، والقاضية باعلان تحرير العبيد .

كيف يحس الزنوج بالطريقة التى يجب أن يعيشوا بها ؟ كيف يناقشـــونها بين أنفســهم عندما يكونون وحدهم ؟ أظن أن هـــذه الأسئلة ، يمكن أن يجاب عليها بجملة مفردة . وذات مرة قال لى صديق يعمل فى مصعد :

— يا رجل .. لو لم يكن البوليس قد خلق من أجلهم بما فيهم جماعات الاغتيال لم يكن هناك شىء سوى أن ينقلب الصراخ الى الحضيض هنا .



"بيج بوى" يغادر المنزل

— ١ —

— انت يا ماما لا تلبسين أى « جونله » ...

ارتفع الصوت واضحا خارجا من الغابات ، وتلاشى مبتعدا . وكالصدى التقطه صوت آخر :

— آه رأيناها عندما خلعتها ...

وقال صوت آخر عال . حاد ، مراهق :

— لا ، انها غسلتها فى الكحول ...

ثم اجتمعت اربعة أصوات فى نغمة موسيقية طافية لاعلى فوق قمم الأشجار :

— لا لقد علقتها خارجا فى الصالة ..

وجاء اربعة من الصبية يضحكون فى دعة ، خارجين من الغابات الى المراعى النضرة ، وساروا بأقدام عارية ، يضربون فروع الكروم المتشابكة والشجيرات بعصى طويلة .

— أريد أن أعرف سطورا اكثر من هذه الأغنية .

— وأنا أيضا .

— نعم ، أنت توقفت عندما أوصلتنا الى حيث علقتها خارجا في الصالة . (Call)

— خمنوا ، ماذا يتفق مع نغمة « صالة » ؟

— ينـــادى . (Call)

— يسقط . (Fall)

— جدار . (Wall)

— « كول » . (Quall)

وألقوا بأنفسهم على الحشائش ضاحكين .

— يا « بج بوى » ؟

— أنت تعرف شيئا واحدا ؟

— مـــاذا ؟

— ما هو ؟

— أنت أوضحت أنك مخبول .

— مخبول ؟

— نعم ، أنت شخص هائم مجنون .

— مجنون لمـــاذا ؟

— يا رجل ، هل سمعت أبدا بكلمة « كول » ؟ (Quall)

— قلت انها تريد شيئا يتناســـب مع نغمة كلمة « صـــالة » (Hall) ، ألم تقل ؟

ـــ نعم ، لكن ما هو الـ « كول » ؟

ـــ يا زنجى ، الكول هو الكول .

وضحكوا ببساطة ، وهم يمسكون ويجذبون أعواد العشب الطويلة الخضراء بأصابع اقدامهم .

ـــ حسنا اذا كان الكول هو الكول فما هو « الكول » ؟

ـــ آه ، الا تعرف .

ـــ مــاذا ؟

ـــ بهذا ستجرى الاغنية كلها هكذا :

أنت يا ماما لا تلبسين أى « جونلة » ،

آه رأيناها عندما خلعتها ،

لا انها غسلتها فى الكحول ،

لا لقد علقتها خارجا فى الصالة ،

لا اذن فقد وضعتها على « كولها »

وضحكوا ثانية . كانت أكتافهم مستوية مع الأرض ، وركبهم منثنية لاعلى ووجوههم متجهة الى الشمس .

ـــ يا « بج بوى » انك مجنون .

ـــ لا تسألنى شيئا آخر .

ـــ أيها الزنجى ، انت مجنون .

وصمتوا يبتسمون ، وهم يسقطون جفون عيونهم من ضوء الشمس .

— يا رجل ، الا تشعر بدفء الأرض ؟

— تماما كالسرير .

— اذن ، يمكنني البقاء هنا الى الأبد .

— وأنا أيضــا .

— انى أشعر كأنما الشمس كلها تدخل داخل جسمى .

— أشعر كأن عظامى دافئة .

وعلى بعد أطلق قطار صفارته بكآبة .

— هناك يذهب رقم اربعة .

— أضرب الكل فى ستة .

— ضعها تحت الخط .

— اقفز لأعلى الشمال يا ولد ، اقفز لأعلى الشمال يا ولد .

وابتدأوا يغنون ، ويضربون العشب بكعوبهم العارية .

هذا القطار ، ذاهب الى السماء .

هذا القطار ، يا للروعة .

هذا القطار ، ذاهب الى السماء .

هذا القطار ، يا للروعة .

هذا القطار ، ذاهب الى السماء .

اذا ركبت فلا داعى للخوف أو القلق .
هذا القطار ، يا للروعة .

هذا القطار ...

هذا القطار لا يحمل أى مقامر .

هذا القطار ، يا للروعة .

هذا القطار لا يحمل أى مقامر .
هذا القطار ، يا للروعة .

هذا القطار لا يحمل أى مقامر .

ليس لنباتات النهار المتسلقة ولا لزهور منتصف الليل الزاحفة

هذا القطار ، يا للروعة .

هذا القطار ...

عندما انتهت الاغنية انفجروا ضاحكين ، يفكرون فى قطار صاعد الى السماء القدسية .

— يا للروعة ، هذه أغنية طيبة .

— يا انسسان (انسان) ...

— ماذا ؟

— يا للروعة ، صففير (يا للروعة صفير) ...

— ماذا ؟

ـــ شخص ما يوقف الريح . ماذا يفعل .

قفز بوك و « بوبو » و « لستر » لأعلى وظل « بج بوى » على الأرض مدعيا النوم .

ـــ يا للغرابة ، هذا يوضح الرائحة الكريهة .

ـــ « بج بوى » .

تظاهر « بج بوى » بالشخير .

ـــ يا « بج بوى » .

فتقلب الصبى كأنما هو نائم .

ـــ « بج بوى » .

ـــ مـــاذا ؟

ـــ هل هناك عفونة فى جوفك ؟

ـــ عفـــونة .

ـــ يا ولد ، ألا تشمها ؟

ـــ أشم ماذا ؟

أيها الزنجى ، لابد انك تناولت طعاما رديئا .

ـــ أشم ماذا ؟

ـــ أيها الزنجى ، انك تطلق الريح .

ضحك « بج بوى » واستلقى ظهره فوق العشب ، مغمضـــا عينيه .

ــ الدجاجة ، ما الذى يصـــيح داخل الدجاجة (يكاكى) ؟ ما الذى يحدث البيضـة ؟

ــ لا نملك دجاجـــا .

ــ أنت تصيح مثلها (تكاكى) الم تفعل ؟

تحرك الثلاثة بعيدا بأنوف مرفوعة لأعلى ، تحرك الثلاثة بأنوف شـامخة .

ــ تعال .

ــ الى أين أنتم ذاهبون ؟

ــ الى البحيرة لنسبح .

ــ نعم ، سأسبح .

قال « بج بوى » وهو يصفع الهواء بفرع نخلة بدون أكتراث :

ــ الآن لابد الآن .

ــ نعم ، وداعا . لا تكن متلكئا .

ــ لا ، ستقتلون ، ما بالك متلكئا الآن .

ــ انه لا يريد أن يذهب ليرانا .

ــ كيف عرفت ؟

ــ لأنه لا يريـــد .

قال « بج بوى » :

ـــ أذهبوا جميعا . سوف أبقى أنا سليما هنا .

ـــ يا للجحيم ، دعه يبقى . تعال ودعنا نذهب .

وسار الثلاثة بعيدا ضاربين الشجيرات والعشب بالعصى . فنظر « بج بوى » بتكاسل الى ظهورهم .

ـــ هـــاى .

ونظروا خلف أكتافهم وهم سائرون .

ـــ هاى ، أيها الزنوج .

ـــ تعـــال .

صرخ « بج بوى » ، والتقط عصاه ، ونهض على قدميه وصاح:

ـــ انتظروا !

ـــ تعـــال !

وجرى وأمسك بهم ، وقفز فوق ظهورهم ، ملقيا بهم الى الأرض

ـــ أهدأ ، يا « بج بوى » .

ـــ أسكت أيها الزنجى .

ـــ أذهب الى الجحيم بعيدا عنى .

تدحرج « بج بوى » على العشـــب بجانبهم ضاحكا وضـــاربا بكعبيه على الأرض .

ـــ أيها الزنجى ، ماذا تظننا ، خيل ؟

ــ كيف تأتى من بعيد لتقفز فوقنا ؟

ــ اسمع ، سنمر فوقك فى يوم من هذه الأيام ولنضربك جميعا،

أبتسم « بج بوى » قائلا :

ــ هذا كاف ؟

ــ نعم ، ألا تحبه ؟

ــ سنضربك حتى لا تستطيع أن تسير .

ــ لاتجرؤون على عمل شىء من ذلك .

وكشف « بج بوى » عن أسنانه .

ــ تعال . حاول أن تفعل ذلك الآن .

فأحاطه الثلاثة فى دائرة .

ــ أسمع ، يا « بوك » أنت تمسك قدميه جيدا .

ــ وأمسك أنت براسه يا « لستر » .

ــ وأنت يا « بوبو » عليك الآن بامساك ذراعيه .

واحتفظوا بمسافة تزيد علىطول االذراع،واحاطوا «ببج بوى» يدورون ويدورون فقال « بج بوى » ملوحا بضربة وهمية لاحدهم ثم الآخر :

ــ هل يخيفنى ثلاثتكم ؟

وظلوا يدورون ويدورون وهم يحيطون به ، لكن دون أن يبدو انهم صاروا أكثر اقترابا ، وقف « بج بوى » وثبت يديه فى فخذيه.

قال « بوبو » مبتسما :

– دعوه لوقت آخر .

قال « لستر » :

– نعم ، فيمكنا أمساكك وانت تفكر .

قال « بوك » :

– نستطيع أن نخدعك .

وضحكوا وساروا معا .

تجشأ « بج بوى » قائلا :

– انى جائع .

– وانا أيضـــا .

– أتمنى لو الملك قدرا كبيرا ساخنا من لحم البطن .

– تطبخ مع بعض أجزاء الصدر الجيدة ..

– لا مع عدد من البيض الجيد وخبز الذرة ..

– لا مع بعض الزبدة ..

– لا مع بعض المشمش الساخن سابحا فى الشوربة ..

– أسكت ، أيها الزنجى .

وابتداوا يغنون ، ضاربين على العشب بالعصى مع آخر كل شطر من الأغنية .

الى اللقاء الى اللقاء

أريد قطعة من فطيرة

فطائر حلوة جدا

أريد قطعة من اللحم

لحم احمر جدا

أريد قطعة من الخبز

خبز لامع جدا

أريد أن أذهب الى البلدة

البلاد البعيدة جدا

أريد أن امسك سيارة

السيارات السريعة جدا

انا اسقط الآن

وكلهم يفهمونها جيدا الى اللقاء ، الى اللقاء ...

تسلقوا سورا من الأسلاك الشائكة ودخلوا متسعا من الغابات الكثيفة . كان « بج بوى » يصفر برقة ، وعيناه نصف مغمضتين .

ــ « هيا نمسك به »

واستدار « بوك » و « لستر » و « بوبو » سريعا ، وامسكوا بـ « بج بوى » جيدا من الرقبة والذراعين والساقين ، ملقين به الى الأرض فأخذ يصرخ ويركل بقسوة عندما تراجع الى داخل النباتات « الشيطانية » .

– امسكه جيدا .

– أمسك ذراعيه . امسك ذراعيه .

– أجلس على ساقيه حتى لا يتمكن من الركل .

فزمجر « بج بوى » بعنف ، محاولا التخلص من قبضتهم .

– « لقد أمسكنا بك الآن ، أيها الأبله ، أمسكنا بك الآن »

فقال « بج بوى » :

– هذه أكذوبة بلهـــاء .

وركل وانحنى وحاول أن يحكم القبض على احـــدهم ثم على الآخر .

– قال « بوبو » :

– قل ، ساعدونى جميعا واتركوا ذراعى .

قال « لستر » :

– آه ، لقد أمسكنا هذا اللقيط الآن .

قال « بج بوى » ثانية :

– هذه أكذوبة بلهاء .

فناداه « بوبو » قائلا :

– قل . ساعدونى جميعا واتركوا ذراعي .

حاول « بج بوى » أن يحيط عنق « بوبو » بذراعه اليسرى . وثنى كوعه كالمقص وثائا من بين أسنانه :

ـــ هل امسكتم بى ، هل فعلتم ؟

ـــ أمسكه .

ـــ هيا نضرب هذا اللقيط .

صاح « بوبو » :

ـــ هيا ، ساعدونى فى أمساك ذراعيه ، فقد تمكن من رقبتى .

فضغط « بج بوى » على عنق « بوبو » وأنزل رأســـه الى الأرض .

ـــ أنتم امسكتم بى ، هل فعلتم ؟

فصرخ « بوبو » :

ـــ أهدأ يا « بج بوى » ، انك تضربنى . انك تؤلم رقبتى .

قال « بج بوى » :

ـــ دعنى اتحرك .

فتوسل « بوبو » قائلا :

ـــ لست أنا الممسك بك ، انهم الآخرون .

قال « بج بوى » :

ـــ قل للآخرين ليذهبوا للجحيم بعيدا عنى والا نساحطم عنقك

فردد « بوبو » :

— انتركَكوا جميعمعا (أتركوا جميعـــا) « بج بـــوى » انه ممسك بى .

— ألا تستطيع أن تمسك به ؟

— للا ، اننته ممسك بعنققى (لا ، انه ممسك بعنقى) .

فزاد « بج بوى » من ضغطه على عنقه قائلا :

— الأن سأحطمه اذا لم تخبرهم بأن يذهبوا الى الجحيم بعيدا.

أسرع تنفس « بوبو » مذرفا الدموع قائلا :

— خلصونى (خلصونى) .

سأل « بوك » :

— الا يمكنك أمساكه يا « بوبو » ؟

— لا لا ، أتركوه أنتم ، فسيققضى على رقبتى (فسيقضى على رقبتى) .

— أقبض على رقبته يا « بوبو » ..

— لا يمكننى ، أتركوه ..

وحتى يمكنهما انقاذ « بوبو » قفز « لستر » و « بوك » وجريا الى مسافة بعيدة فى مأمن من « بج بوى » . وافلت « بج بوى » « بوبو » من قبضته فســقط عند قدميه ، ولعابه يســيل محاولا تدليك أثر الآلم برقبته .

صاح « بوبو » بصوت كالطفل الصغير :

ـــ أيها الزنجى ، كدت أن تحطم رقبتى .

قال « بج بوى » :

ـــ سأحطمها هكذا فى المرة القادمة .

قال « لستر » مستسلما :

ـــ لو أستطاع « بوبو » أمساكك لكنا تمكنا منك .

قال « بج بوى » :

ـــ لم يحدث شىء ، دعه يفعل ذلك .

وساروا معا مرة ثانية ، وهم يضربون بالعصا .

ابتدأ « بج بوى » قائلا :

ـــ هل ترون ؟ عندما يقفز عليكم أحد ، كل ما عليكم أن تفعلوه لا تدعوا الهجوم لشـــخص واحد بل أشتركوا جميعا فيه ، هل ترون ؟

ـــ يا للروعة ، هذه فكرة طيبة .

ـــ حقا ، هذه فكرة طيبة .

قال « بوبو » :

ـــ لكنك كدت تحطم رقبتى يا رجل .

قال « بج بوى » وهو يفتح صدره بقوة :

ـــ أننى زنجى مهذب .

وساروا الى ساحة السباحة .

قال « بوبو » :

— سأمضى للسباحة .

سأل « بج بوى » :

- ألا تخاف ؟

— الآن ، لا أخاف ..

— كيف تسبح هنا ؟

— انك تعلم بأن جميع رجال « هارفى » لا يسمحون للزنوج بالسباحة فى هذه الساحة .

قال « لستر » :

— نعم فقد وجهت فى العام الماضى رصاصة نحو « بوب » لسباحته هنا .

قال « بج بوى » :

— لا تخشوا شيئا ، فكل أفراد « هارفى » لا يدرسون علومهم عنا نحن الزنوج .

قال « بوك » :

— انه فى منزله يفكر فى شطائر الحلوى .

وضـــحكوا .

قال « لستر » :

— « بوك » ، أنت تعنى انه غارق فى صدور الثعابين .

قال « بج بوى » :

— كل رجـــال « هارفى » فى شغل للغاية ، فى التفـــكير حول شطائر المربى ، اما هارفى العجوز فقد أصبح أشيخ من أن يفكر فيها .

قال « بوبو » :

— لقد جف عوده ، وخفت من عصارة الحياة .

قال « بج بوى » :

— تعالوا ، هيا نذهب .

أشار « بوبو » قائلا :

— أنظر هذه العلامة هناك ؟

— نعـــم .

— ماذا تقول ؟

قرأ « لستر » :

— ممنوع المرور .

— هل تعرف ما معنى هذا ؟

قال « بوك » :

— يعنى انه ، لا الكلاب ولا الزنوج مسموح لهم بالدخول .

قال « بج بوى » :

— كان « وول » هنا الآن ، اذا أمسكنا هكذا ستكون هناك قلاقل لذا فاننا سندخل بمجرد ذهاب « وول » ..

— سأكون انا أول من ينزل .

— سنمضى جميعا اذا ما مضى اى شخص آخر .

نظــر « بج بوى » باهتمام فى جميع الاتجاهات . ولمــا لم ير أحد اخذ يخلع ملابسه .

— آخر من ينزل سيكون كلبا ميتا .

— انها أمك !

— انه أبوك !

— انه ابوك وأمك معا !

وخلعوا ملابسهم والقوا بها مكومة تحت شجرة . وبعد ثلاثين ثانية وقفوا سودا وعراة على طرف الساحة تحت جسر منحدر . ومس « بج بوى » المــاء بقدميه حذرا . وقال :

— يا رجال هذه المياه باردة .

فقال « بوبو » ساحبا قدمه :

— سأذهب لارتدى ملابسى .

فأمسكه « بج بوى » من خصره قائلا :

— انك كالجحيم .

قال « بوبو » مستسلما :

— ابعد عن هذا الطريق ، يا زنجى .

قال « لستر » :

— القى به فى الماء .

— أدفعه .

فانحنى « بوبو » واوسع فتحة ساقه ، وركز كل قواه ضد جسم « بج بوى » وكانت سواعدهما مشتبكة ببعضها البعض ، وتصارعا على طرف الساحة ، دون أن يتمكن أحدهما من الالقاء بالآخر .

— تعال ، هيا ندفعهما الآن فى الماء .

— وهو كذلك .

ودفع « لستر » و « بوك » الجسدين المتشابكين دفعة قوية وهما يضحكان فسقط « بج بوى » و « بوبو » مرسلين انعكاسات فضية فى ضوء الشمس وعندما ارتفع رأس « بج بوى » قال مستسلما :

— ايها اللقيط .

قال « بوبو » وهو يهز رأسه ليزيل المـــاء عن عينيه :

— كنت أنت الذى دفعتنى .

وغاصا غوصا سطحيا ثم أرتفعا وأصـــطدما عبر المـــاء . تصاعد المـــاء المختلط بالطين . وسبحا على ظهريهما وصـــارا فى المياه الضحلة ، يتجاذبان أنفاسا عميقة ويفركان عيونهم .

— تعالوا .

— يا رجل ، ان المياه رائعة .

تردد « لستر » و « بوك » :

همس « بج بوى » الى « بوبو » :

— هيا نبللهما .

وقبـــل أن يتمكن « لستر » و « بوك » من الابتعـــاد ، كانا يقطران بللا من حفنات المـــاء الملقى عليهما .

— آه ، آه .

— يا زنجى ، ان الميـــاه باردة .

فناداهما « بج بوى » :

— هيا أنزلا .

قال « بوك » :

— نحن منتظران فربما أتى « ووفى » الآن .

— أنظرا الآن لتريا ما اذا كان أحد قادما .

فركعا على ركبتيهما ونظرا بين الأشجار .

— لا يوجد أحد .

— تعال لنذهب .

وســــاروا فى المـــاء ببطء ، وهم يتوقفون كلما تقدموا خطوات قليلة ليلتقطوا أنفاســــهم ونشبت معركة مائية بائسة . وبعيون مغمضة وأجســـاد متراجعة ، أخذوا يقـــذفون المـــاء فى وجوه بعضهم البعض بكفوفهم .

— ايه ، توقفوا .

— نعم ، فانى على وشك الغرق .

وساروا معا فى المـــاء حتى بلغ أرتفاعه الى سررهم ، يضربون ويغمضـــون عيونهم ثم يفتحونها . ودفع « بج بوى » « بوبو » محاولا قلبه قائلا :

— أنظر الى الخارج يا زنجى .

— لا تصح عاليا هكذا .

— نعم ، فيمكنهم سماع صوت فمك الكبير على بعد ميل .

— هكذا المـــاء ، بارد جدا بالنسبة لى .

— هذا لأنها أمطرت أمس .

وسبحوا عابرين وعائدين مرة ثانية .

— أتمنى لو لدينا مكان أكبر لنسبح فيه .

— يمتلك البيض الكثير من ســاحات السباحة لكننا لا نملك شيئا على الاطلاق .

— تعودت أن أستحم فى كل « المسيسبى » عندما كنا نعيش فى « فكسبرج » .

وضع « بج بوى » رأســه تحت المــاء وكتم نفسه . وجــاء صوت شبيه بصوت الدرفيل :

— هيا ، ليكن كل منا درفيلا .

وذهب كل منهم الى ركن من البحيرة ووضع فمه تحت ســطح المــاء مباشرة ولوح كالدرفيله وخرجوا متعبين وجلســوا تحت الجسر .

— اننى اشبه بالقوقع .

— وأننا أيضــا .

— دعونا نبقى حتى نجف .

— آآآه ، اننى أشعر بالبرد .

وظلوا قابعين فى الشمس ، يطردون رعدة البرق . وبعــد ما جف بعض المــاء عن أجســادهم ، أخذوا يتكلمون من خــلال أسنان مصطكة .

— ماذا تفعلون اذا جاء كل رجال « هارفى » هنا الآن ؟

— أجرى بأقصى ما يمكننى من سرعة .

— يا رجل .

— سأجرى بأقصى سرعة خشـية أن يطلق على رصاصـة سوداء تخترقنى .

— لكن لنفرض انه كانت معه بندقية ؟

— آه ، يا زنجى ، اخرس .

كانوا صـامتين . ومروا بأيديهم على سيقانهم الرطبة مزيلين قطرات المـاء منها ثم راقبت عيونهم الشمس البراقة على سطح البحيرة الممتدة . ومن بعيد أطلق قطار صفيره .

— هناك يذهب رقم سبعة .

— متجها الى الشمال .

— علمها اسفل الخط .

— يا رفاق ، سأذهب يوما الى الشمال .

— وأنا أيضا ، يا رجال .

— يقولون أن الملونين فى الشمال يحظون بحقوق المساواة .

وأخذوا يفكرون . ورفرفت فراشة سوداء على حافة المياه . وغرقت نحلة . ومن مكان ما جاء عبير حلو لزهرة . واستطاعوا بصعوبة سـماع الهداهد تصفر فى الغابات . وتقلبوا من جانب

لآخر تاركين أشعة الشمس تجفف جلودهم وتدفىء دماءهم . وقطفوا مجموعة من العشب وقضموها .

ـــ آه .

ونظروا لأعلى وشفاهم مفترقة .

ـــ آه .

كانت امرأة بيضاء متصلبة على طرف الجسر المقابل ، واقفة أمامهم مباشرة ، وقبعتها فى يدها وشعرها يلمع بأشعة الشمس.

همس « بج بوى » فى نفس خافت ؟

ـــ انها امرأة . امرأة بيضاء .

وحملقوا ، وتحركت أيديهم بحركة فطرية تستر عوراتهم ثم تسلقوا على أقدامهم . أختفت المرأة البيضاء تدريجيا عن مستوى النظر . فوقفوا لحظة ينظرون الى بعضهم البعض .

همس « بج بوى » :

ـــ هيا نبتعد عن هنا .

ـــ أنتظر حتى تذهب بعيدا .

ـــ هيا نجرى ، سيمسكون بنا عراة هكذا .

ـــ ربما كان هناك رجل معها .

قال « بج بوى » :

— تعالوا لنرتدى ملابسنا .

وأنتظروا لحظة أطول ، يتسمعون . فقال « بج بوى » :

— ماذا هناك ؟ سأرتدى أنا ملابسى .

وتسلق الجسر ممسكا بمجموعة من الحشائش القصيرة .

— لا تجر الى الخارج هناك الآن .

— تعالوا أيها الأغبياء .

تردد « بوبو » ونظر الى « بج بوى » ثم الى « بوك » و « لستر » وقال :

— سأنضم الآن الى « بج بوى » لأرتدى ملابسى .

قال « بوك » :

— لا تجر خارجا هكذا وأنت عار ، يا غبى . أنت لا تعلم من بالخارج هناك .

كان « بج بوى » يتسلق حافة الجسر وهمس :
— تعالوا .

فتسلق « بوبو » خلفه . على بعد خمسة وخمسين قدما وقفت المرأة . كانت تضع احدى يديها على فمها . وتعلق كل من «بوك» و « لستر » بأصابعهما واختلسا النظر فوق الحافة . قال « لستر » :

— تعالوا هنا ، هذه المرأة خائفة .

وقف « بج بوى » متحيرا ، ونظر الى المرأة ، ونظر الى كومة الملابس . ثم نظر الى « بوك » و « لستر » .

— هيا ، نرتدى ملابسنا .

وتقدم خطوة .

صاحت المرأة :

— جيـــم .

توقف « بج بوى » ونظر حوله . ويداه معلقتان بلا حركة على جانبه . كانت المرأة بعينيها الواسعتين ، ويدها على فمهـــا ، تتراجع بعيدا نحو الشجرة حيث تقبع ملابسهم فى كومة .

جرى « بوبو » الى جانب « بج بوى » قائلا :

— يا « بج بوى » تعال هنا الآن وأنتظر حتى تذهب .
أضـــاف :

— هيا نذهب الى المنزل ، فسيمسكون بنا هنا .

وشعر « بج بوى » كأن حنجرته مقيدة . قال :

— يا سيدتى ، نريد أن نحضر ملابسنا .

تسلق « بوك » و « لستر » الجسر ووقفا مترددين . جرى « بج بوى » نحو الشجرة .

وصرخت المرأة :

— جيم .. جيم .. جيم ..

وقف « بج بوى » أسود عاريا على بعد ثلاثة أقدام منهما وقال مرة أخرى بكلمات آلية :

— نريد أن نحضر ملابسنا .

وأحدث حركة .

— أذهب بعيدا . أذهب بعيدا . لقد أخبرتك بأن تذهب بعيدا . فتوقف « بج بوى » ثانيا ، خائفا ، جرى « بوبو » وأختطف الملابس . وحاول كل من « بوك » و « لستر » أن يخلصا ملابسهما من يديه . وصرخت المرأة :

— ابتعد . ابتعد . ابتعد .

قال « بوبو » وهو يجرى نحو الغابات :

— هيا نذهب .

جنون .

توقف « بوك » عند حافة الجسر . ورأسه مشدود الى الخلف وجسمه متقوس بتصلب على جانب واحد ، وسقط على رأسه مرسلا انعكاسا براقا الى ضوء الشمس . فاهتزت صفحة البحيرة .

تراجع « بج بوى » و « بوبو » بعيدا ، وعيونهما مثبتة بخوف على رجل أبيض كان يجرى نحوهما . كانت معه بندقية ويرتدى بزة ضابط فى الجيش جرى الى جانب المرأة وأمسك يديها .

— هل أوذيت ، يا « برثا » ، هل أوذيت ؟
فحدقت فيه ولم تجب .

فاستدار الرجل سريعا . كان وجهه أحمر . ورفع البندقية وصوبها الى « بوبو » . جرى « بوبو » عائدا ممسكا بالملابس أمام صدره .

— لا تطلق على الرصاص يا سيدى ، لا تطلق على الرصاص فأبعد « بج بوى » أتجاه البندقية ممسكا بماسورتها .

— أيها الأسود ابن الكلبة .

فأطبق عليها « بج بوى » يائسا

— دعنا نذهب أيها اللقيط الأسود

أتجهت فوهة الماسورة نحو السماء .

جنون .

كان الرجل الأبيض أطول وأثقل منه فألقى به الى الأرض . فأسقط « بوبو » الملابس ، وجرى عاليا وقفز على ظهر الرجل الأبيض .

— أيها السود أولاد الكلاب .

ترك الرجل الأبيض البندقية . وأمال « بوبو » على الأرض وأخذ يضرب الصبى العارى بقبضتيه . فتعلق به « بج بوى » وأخذ يضرب الرجل على فمه بالماسورة . فانهارت أسنانه ، وسقط ، ورأسه يدور . كان « بوبو » عند قدميه .

— تعالى ، يا « بج بوى » ، هيا نذهب .

تنفس الرجل الأبيض بصعوبة ، ونهض وواتجه « بج بوى » كانت شفتاه ترتعدان ، ورقبته وذقنه مبللتين بالدم . وتكلم سريعا :

— أعطنى هذه البندقية ، أيها الصبى .

بسط « بج بوى » البندقية وتراجع مبتعدا .

وتقدم الرجل الأبيض قائلا :

— أيها الصبى قلت أعطنى هذه البندقية .

تناول « بوبو » الملابس بين ذراعيه .

— اجر يا « بج بوى » ، أجر .

سار الرجل الى « بج بوى » فقال « بج بوى » :

— سأقتلك ، سأقتلك .

وترددت أصابعه نحو الزناد ...

توقف الرَجل وهو يغمض عينيه ويفتحهما ويفيض الدم . وغشيت عيناه . وأبيض وجهه ، وفجأة ، القى بنفسه على البندقية ، ويداه ممدودتان . جنون .

وسقط على وجهه .

— جيم ..

صرخت المرأة مرة ثانية ، وسقطت بضعف عند جذع الشجرة

أسقط « بج بوى » البندقية ، وعيناه متسعتان . ونظر حوله. كان « بوبو » يصرخ ممسكا بالملابس .

— « بج بوى » ، « بج بوى » ...

نظر « بج بوى » الى البندقية ، وحاول أن يلتقطها ، لكنه لم يفعل . بدا انه فى مأزق . ونظر الى « لستر » ، ثم الى الرجل الأبيض ، وتتبعت عيناه شريطا رفيعا من الدم يسيل على الأرض.

غمغم « بوبو » :

— أنت لم تقتله .

— هيا نذهب الى المنزل .

واستدارا وهما عاريان وجريا نحو الغابة . وعندما وصلا الى سور الأسلاك الشائكة توقفا .

قال « بج بوى » :
— هيا نرتدي ملابسنا .

ودخلا بسرعة فى معطفيهما . أمسك « بوبو » بملابس «لستر» « بوك » قائلا :

— ماذا سنفعل بهذه ؟

حدق « بج بوى » ويداه معقودتان قائلا :

— اتركهـا .

وتسلقا السور وجريا داخل الغابات وشجيرات الكروم وأوراق الأشجار تضرب وجهيهما . وبمرة تعثر « بوبو » وسقط.

قال « بج بوى » :

— « تعال » .

فأخذ « بوبو » يصرخ ، والدم ينزف من جروحه ، قائلا :

— لقد جرحت .

— تعال . لا تصح. تريد أن نذهب الى المنزل قبل أن يمسكوا بنا .

قال « بوبو » مرة ثانية وعيناه ممتلئتان بالدموع :

— لقد جرحت .

فأمسك « بج بوى » بيده ، وجذبه معه قائلا :

— تعال .

— ٢ —

توقفا عندما بلغا نهاية الغابات . كان يمكنهما رؤية الطريق المفتوح الذى يفضى الى المنزل ، المنزل حيث الأم والأب . لكنهما تعلقا الى الخلف خائفين . كانت الظلال الكثيفة الملقاة من الأشجار صديقة وحامية . لكن اشعة الشمس البراقة باتساعها والممتدة فوق الحقول كانت قاسية بلا رحمة . فانزويا بجانب شجرة متآكلة عجوز .

قال « بج بوى » :

— أوشكنا على العودة الى المنزل .

قال « بوبو » نصف متسائل :

— سيحضرون لاغتيالنا .

فلم يجب « بج بوى » .

قال « بوبو » ثانية :

— سيحضرون لاغتيالنا .

فارتعد « بج بوى » قائلا :

— أســكت .

انه لا يريد أن يفكر فى ذلك . لم يكن بامكانه أن يفكر فيــه ، لم تكن هناك سوى فكرة واحدة . وقد تعلق بها تعلقا أعمى . كان عليه ان يذهب الى المنزل ، المنزل حيث الأم والاب .

ارتفعت رأساهما لأعلى بغتة . والتقطت عيونهما بريق عربة تتحرك فسقطا على الأرض وانزويا بجانب شجرة . وعبر قمة التــل جاء الطرف الأعلى لقبعــة . وجه أبيض . ثم ذراعــان فى قميص أزرق . وجاءت عربة يجرها حصانان ملء البصر .

كتــم « بج بوى » و « بوبو » انفاســهما منتظرين . تتبعت عيونهما العربة حتى ضاعت فى الغبار حول منحنى فى الطريق .

قال « بج بوى » :

— علينا بالذهاب الى المنزل .

قال « بوبو » :

— انى مجروح .

— تعال . هيا نجلس فى الحقول .

وجريا حتى بلغا حقول الذرة . ثم سارا ببطء ، لأن جذور اعواد الذرة من محصول العام الماضى ورمت اقدامهما .

ووقع بصرهما على قمينة طوب .

قال « بج بوى » لا هنا :

— انتظر دقيقة .

ووقفا .

— سأذهب الى منزلى الآن ومن الافضل ان تذهب الى منزلك

فاتسعت حدقتا عينى « بوبو » قائلا :

— انى مجروح .

— من الأفضل ان تمضى .

— دعنى أذهب معك ، فسيمسكون بى ...

— اذا امكنك الذهاب الى المنزل فربما استطاع اهلك ان يساعدوك فى الإبتعاد .

وواصل « بج بوى » سيره . فتعلق به « بوبو » قائلا :

— دعنى أذهب معك .

فتخلص منه « بج بوى » ، قائلا باستسلام وهو يجرى :

— الذا بقيت هنا فسيقتلونك .

وبعد أن اجتاز حوالى خمس وعشرين ياردة استدار ونظر ، كان « بوبو » طائرا داخل الغابات كالريح .

تباطأ « بج بوى » عندما جاء الى خطوط السكك الحديدية . واحتار فى هل يذهب عبر الشوارع أم يخترق الممر السفلى . وصمم أن يجتاز الخطوط الحديدية . فيمكنه أن يهرب من قطار أكثر من أن يهرب من جماعة متعطشة لسفك الدماء .

وقفز عبر الحدود ، ناظرا الى الأمام والى الخلف . آلمه خده ، وشعر به ، وخرجت يده ملطخة بالدماء . فمسحها بعصبية فى معطفه .

وعندما جاء الى السور الخلفى لمنزله ، القى بنفسه فوقه . فسقط بين مجموعة مذعورة من الدواجن . وحاول كتكوت أن يسرع قبله . فانزلق وسقط أمام درجات المطبخ ، وصرخ عاليا كانت الأرض زلقة بماء الصحون الدهنى فلهث ، وتدحرج داخل البوابة .

— يا للسوء ، يا « بج بوى » ، أى سوء وقعت فيه .

وقفت أمه مشدودة وسط الأرض . وقبع « بج بوى » — صامتا — على مقعد مريح يرجع الى الوراء بين الحين والحين .

كانت الآوانى تغلى على الموقد . والمطبخ يموج برائحة الطعام المطهو .

ــ ماذا حدث يا « بج بوى » ؟

فنظر اليها ، غير قادر على التكلم ، ثم أنفجر يذرف الدموع . فجاءت وشعرت بالجروح التى بوجهه .

ــ ماذا حدث لك يا « بج بوى » ؟ هل اذاك أحد ؟

ــ انهم قادمون خلفى يا أمى . انهم خلفى . . .

ــ من .

ــ آه . . آه . . نحن . .

ــ يا « بج بوى » ، اى سوء وقعت فيه ؟

فغمغم ببساطة :

قتلى « لستر » « بوك » .

قتــلا .

فغمغم نعم .

ــ « لستر » و « بوك » .

فغمغم نعم ، يا أمى .

ــ كيف قتلا ؟

ــ أطلق عليهما الرصاص .

فأنت وهى تهصر يديها :

— يا الهى يا رحيم ، اغمرنا برحمتك جميعا . هذه الالام تتزايد ، هذه الالام تتزايد !

— والآن لقد قتلته يا أمى ..

فحملقت ، محاولة ان تفهم .

— ماذا حدث يا « بج بوى » ؟

— حاولنا ان نحضر ملابسنا من الشجرة ...

— اى شجرة ؟

— كنا نسبح ، يا أمى . حتى اتت المراة البيضاء ...

— امراة بيضاء ؟ ...

— نننعم (نعم) . كانت عند ساحة السباحة ...

— يارب أرحمنا . كنت أعلم انكم أيها الاولاد راحلون مادمتم تفعلون مثل هذا !

جرت فى الصالة ونادت :

— « لوسى » .

— أمى ؟

— تعالى هنـــا .

— أمى ؟

ـ اقول ، تعالى هنا .

ـ ماذا تريدين ، يا أمى ؟ اننى أخيط ؟

ـ أيتها الطفلة ، الا تأتين كما أطلبك ؟

جاءت « لوسى » الى الباب ممسكة بيديها مئزرا لم تنتزعه من حياكته . وعندما رأت « بج بوى » ، نظرت بفزع الى امها .

ـ ماذا حدث ؟

ـ أين ابى ؟

ـ انه فى الخارج امامنا .

ـ احضريه سريعا .

ـ ماذا حدث ، يا أمى ؟

ـ قلت ، اذهبى واحضرى اباك .

جرت « لوسى » خارجة . غاصت الأم فى كرسى ممسكة بخرقة لغسل الصحون وفجأة جلست معتدلة .

ـ يا « بج بوى » ، ظننت انك كنت فى المدرسة .

نظر « بج بوى » الى الأرض :

ـ كيف لم تذهب الى المدرسة ؟

ـ ذهبنا الى الغابات .

ـ سعلت .

ـــ لقد عملت كل ما بوسعى من اجلك ، يا « بج بوى » والله وحده هو الذى يمكنه أن ينقذك الآن .

ـــ امى ، لا تدعيهم يمسكون بى ، لا تدعيهم يمسكون بى .

ثم جاء والده داخل البوابة . حدق فى « بج بوى » ، ثم فى زوجته . وسأل بحزم :

ـــ ما الذى فعله « بج بوى » الآن ؟

ـــ « سول » ، لقد وقع « بج بوى » فى مشاحنة مع البيض.

ففغر الرجل العجوز فاه ، وقلب النظر من الواحد الى الآخر.

ـــ « سول » ، يجب علينا أن نذهب بعيدا عن هنا .

فأمسك الرجل العجوز بكتفى « بج بوى » وحدق فى الجروح التى بوجهه وقال :

ـــ أفتح فمك الآن وتكلم . ما الذى فعلته ؟

ـــ كنت مع « لستر » و « بوك » و « بوبو » خــارجين من مساحة سباحة « هارف » العجوز ...

ـــ « سول » ، أنها امرأة بيضاء .

تراجع « بج بوى » مذعورا . وضـــغط الرجل العجوز على شفتيه وحدق فى زوجته نظرت « لوسى » الى اخيها مشـــدوهة كأنما لم تره من قبل .

أرعد الرجل العجوز ، بنغمة بائسة من صوته قائلا :

ــ ماذا حدث ؟ الا يمكنك أبدا أن تتحدث ؟

فابتدأ « بج بوى » قائلا :

ــ كنا نستحم ، حتى أتت امرأة بيضاء الى أعلى الساحة . فخرجنا منها وذهبنا لنرتدى ملابسنا حتى يمكننا أن نذهب بعيدا، فأخذت تصرخ وكانت ملابسنا بجوار الشجرة حيث كانت تقف ، وعندما تقدمنا لنحضرها أخذت تصرخ . فأخبرناها اننا نريد ملابسنا .. أنت ترى انها كانت واقفة بجوار ملابسنا ، والآن عندما ذهبنا لنحضرها اخذت تصرخ .. فأحضر « بوبو » الملابس، ثم أطلق الرصاص على « لستر » ...

ــ من أطلق الرصاص على « لستر » ؟

ــ الرجل الأبيض .

ــ أى رجل ابيض ؟

ــ آه ، يا والدى ، كان جنديا ومعه بندقية .

ــ جنـــدى ؟

ــ ننعم (نعم)

ــ جنـــدى ؟

ــ ننعم (نعم) ، يا أبى ، جندى .

فتجعدت جبهة الرجل العجوز مفكرا .

ــ حسنا وعندئذ ماذا فعلتم جميعا ؟

قال « بوك » .

حســـنا ، لقد أحضر بندقية ، وعندئذ واصل الجرى ثم أطلق الرجل الرصـــاص على « بوك » ، فسقط فى ساحة الســباحة ولم نر اكثر من ذلك .. كان ملتصقا بنا عندئذ . ونظر الى المرأة البيضاء ثم واصــل أطلاق رصاصة على « بوبو » فأمســكت البندقية ، وعنــدئذ اخذنا نتعارك . قفز « بوبو » على ظهره فاستمر فى ضربة لـــ « بوبو » ثم ضربته بالبندقية ثم تحول الى وعندئذ أطلقت عليه الرصاص ثم جرينا ...

— من شاهدكما ؟

— لا أحــد .

— أين « بوبو » ؟

— ذهب الى المنزل .

— الم يجر احد خلفكما ابدا ؟

— لا بكل تاكيد .

— هل رايت احـــدا ؟

— لا بالتأكيد . لا احد سوى رجل ابيض ، لكنه لم يرنا .

— كم مضى من الوقت منذ غادرتما ساحة السباحة ؟

— قليل من الوقت ونحن عائدان .

فمسح الرجل العجوز يده عبر عينيه وســـار الى البـــاب ، وتحركت شفتاه لكنهما لم يخرجا كلمات .

« سول » ما الذى سنفعله ؟

ابتدأ الرجل العجوز قائلا :

ــ « لوسى » ، اذهبى الى الأخ « ساندرز » واخبريه اننى اريده هنا . ثم اذهبى الى الأخ « جنكينز » واخبريه باننى اريده هنــا ، واذهبى الى « الدريترز » واخبريه باننى أريده هنــا ، ولا تقولى شيئا لأى شخص عدا من ذكرتهم لك . وعندما تنتهى من هذا عودى مباشرة .

اذهبى الآن :

ألقت « لوسى » مئزرها على ظهــر كرسى وجرت أســفل الدرجات . وانحنت الأم تصيح وتصلى . وسار الرجل العجوز ببطء الى « بج بوى » .

ــ يا « بج بوى » ؟

فابتلع « بج بوى » لعابه .

ــ انى أتحدث اليك .

ــ ننعمم (نعم) .

ــ كيف لم تذهب الى المدرسة هذا الصباح .

ــ ذهبنا الى الغابات .

ــ ألم ترسلك امك الى المدرسة ؟

ــ ننعم (نعم) .

— فكيف ذهبت ؟

نظر « بج بوى » الى اصـــابعه وضمها الى صـــدره وتلوى فى مقعده .

— انى اتحدث اليك .

فاستوت زوجته وقالت راجية :

« ســـول » .

نصمت الرجل العجوز ، واخذ يجذب بعصبية شرائط معطفه عند الكتف .

— ما طول المراة التى كانت هناك ؟

— ليست طويلة .

— هل كانت صغيرة ؟

— ننتعم (نعم) . كالنبتة .

— هل قلتم لها اى شىء ؟

— لا بالتاكيد . قلنا فقط اننا نريد ملابسنا .

— وماذا قالت ؟

— لا شىء يا ابى . تراجعت فقط الى الخلف عند الشـــجرة واخـــذت تصرخ . فحدق الرجـــل العجوز ، وحاولت شـــفتاه ان تكون سؤالا .

ـ يا « بج بوى » ، هل ضايقتموها ؟

ـ لا بالتأكيد ، يا أبى . لم نمسها .

ـ ما طول المسافة التى جاء منها الرجل الأبيض ؟

ـ من بعيـــد .

ـ ماذا قـــال ؟

ـ لا شىء . سبنا فقط .

وفجأة غادر الرجل العجوز المطبخ .

ـ أمى ، الا أستطيع ان أذهب ، لأنهم سيمسكون بى .

ـ سيفعل « سول » ما يمكنه .

ـ أمى ، أمى ، لا اريدهم أن يمسكوا بى ..

ـ سـيفعل « سول » ما يستطيعه . لا أحـــد سوى الله يستطيع أن ينقذنا الآن .

عاد الرجل العجوز ببندقيته سريعة الطلقات واسـندها الى ركن . فنظر « بج بوى » اليها منجذبا .

كانت هناك طرقة على الباب الأمامى .
ـ « ليزا » انظرى من هناك .

فذهبت . كانا ساكتين ، ينصتان . كانا يستطيعان سـماعها تتكلم .

— من هنـــاك ؟

— أنـــا .

— من ؟

— أنا الأخ « سـاندوز » .

— تعالى ادخل « سـول » ينتظرك .

وقف « سـاندوز » بالبوابة مبتسما .

— أرسلت فى طلبى ، أيها الأخ « موريسون » ؟

— يا أخ « سـاندورز » نحن هنا فى اشكال عويص .

فسـار « سـاندوز » مخترقا المطبخ .

نعـــم ؟

ذهب « بج بوى » الآن وقتل رجلا ابيض .

توقف « سـاندوز » قليلا . ثم اقترب ، بوجه مضطرب وفـــم مفغور ، تحركت شفتاه مرات عديدة قبل أن يتمكن من الكلام .

— رجل ابيض ؟

فصاح « بج بوى » جاريا الى الرجل العجوز :

— أنهم قادمون ليقتلونى ، انهم قادمون ليقتلونى .

— « سـول » الا تستطيع أن تذهب به بعيدا فى اى مكان ؟

قال « سـاندوز » ممسكا بمعصمى « بج بوى » :

— الآن حالا ، لا تخش شيئا ، لا تخش شيئا .

وانزلق « بج بوى » الى الارض . فحملوه الى مقعد فامسكته أمه لصقها واسندت راسه الى صدرها .

سأل « ساندورز » :

— ما الذى سنفعله ؟

— لقد ارسلت فى طلب الآخرين « جنكينز » و « الدريترز » .

أسند « ساندوز » كتفيه الى الحائط . وعندما مثل أمامه المعنى الكامل لهذا المأزق ، صرخ قائلا :

— سيقومون بهجوم لسفك الدماء ...

علا صوته وسقطت عيناه على البندقية سريعة الطلقات وجاء وقع أقدام سريعة على الدرج . فاستداروا الى الباب . دخلت « لوسى » تجرى وتصيح وتبعها « جنكينز » فقابله الرجل العجوز فى منتصف الحجرة آخذا بيده .

— اننا فى اشكال بالغ السوء هنا ، أيها الأخ « جنكينز » لقد قتل « بج بوى » رجلا أبيض . ان عليكم مساعدتى .

فنظر « جنكينز » بقسوة الى « بج بوى » .

قالت « لوسى » :

— اخبرنى « الدريترز » انه قادم .

سأل « جنكينز » :

— متى حدث كل هذا ؟

فقال الرجل العجوز :

— قريبا منذ حوالى الساعة ..

سأل « جنكينز » :

— ما الذى سنفعله ؟

قال الرجل العجوز يائسا :

— أريد أن ننتظر حتى يحضر « الدريترز » .

قال « ساندوز » :

— لكن علينا أن نعمل سريعا اذا أردنا عمل شىء . فسنقع فى متاعب مادمنا واقفين هنا هكذا .

افترق « بج بوى » عن أمه قائلا :

— والدى دعنى أذهب الآن . دعنى أذهب الآن .

— أبق ساكنا ، يا « بج بوى » .

— أين يمكنك أن تذهب ؟

— أستطيع أن أتعلق بقطار بضائع .

قال « جنكينز » :

— هذا هو الموت . سيلاحظونك جميعا .

سأل الرجل العجوز :

— هل يمكنكما أن تساعدانى ببعض النقود ؟

فهزا رأسيهما .

« سول» ، ما الذى يمكننا أن نفعلة ؟

كانت هناك طرقة اخرى على الباب .

فتراجع الرجل العجوز متلصصا الى البندقية .

— « لوسى » ، أذهبى .

فنظرت « لوسى » اليه مترددة .

قال « جنكينز » :

— يحسن أن اذهب .

كان هذا « الدربترز » ودخل مسرعا .

— مساء الخير لكل شخص .

— كيف حالك يا « الدر » ؟

— مساء الخير .

— كيف حالك اليوم ؟

دار « بترز » ببصره حول المطبخ المزدحم بالأشخاص .

— ماذا حدث ؟

ابتدأ الرجل العجوز قائلا :

— « الدر » ، اننا فى أشـــكال عويص « بج بوى » وبعض الصبية ..

— .. لستر و بوك و بوبو ....

— ... كانوا فى ساحة سباحة « هارف » ..

قال « بترز » مواسيا :

— أنه فعل مثلما نفعل نحن الزنوج ...

وأوسع فتحة ساقيه ووضع ابهامه فى حمالتى قميصه الداخلى

— .. وعندئذ تجىء امراة بيضاء ..

فقال « بيترز » مقتربا :

— نعـم ؟

— .. هناك ، ويحاول الأولاد احضار ملابسهم حيث تركوها تحت شجرة . حسنا ، أخذت تصرخ . كلكم ترون الآن ؟ ربما ظنت ان الأولاد قادمون خلفها . ثم اطلق رجل ابيض فى بزه جندى الرصاص على اثنين منهم فقتلهما .

— .. « لستر » و » بوك » ...

— ايه . كان هذا الرجل ابن « هارى » .

— تعنى أبنه الذى كان فى الجيش ؟

— تعنى جيم ؟

قال « بيترز » :

— نعم ، فالصحف تقول انه هنا فى اجازة من عمله .

اذن فالمرأة التى شاهدها الأولاد كانت زوجته ..

فحدقوا فى « بترز » عندما عرفوا الآن اى رجل ابيض قد قتل . صارت مخاوفهم يقينية .

— ثم ماذا حدث أيضا ؟

ـــ اطلق « بج بوى » الرصاص على الرجل ...

ـــ ابن « هارفى » ؟

ـــ لقد عملها ، يا « الدر » كان على وشك أن يقتله بالرصاص اذا لم يفعل هو ...

قال «بترز » :

ـــ يا الهى .

ونظر حوله ووضع قبعته على راسه .

ـــ منذ متى حدث هذا ؟

ـــ منذ حوالى الساعة ، كما اعتقد .

ـــ هل علم البيض بعد ؟

ـــ لا أعلم . يا « الدر » .

قال « بترز » :

ـــ أنتم جميعا من الأفضل ان تذهبوا بـــ « بج بوى » بعيدا الآن لانكم اذا لم تفعلوا هذا فسيصبح قتيلا ...

جرى « بج بوى » اليه قائلا :

ـــ الى اين أستطيع ان اذهب يا « الدر » ؟

تجمعوا حول « بترز » الذى وقف بساقيه المفتوحتين باتساع، ناظرا لاعلى الى السقف .

قال « جنكينز » :

— ربما أســتطعنا تخبئته فى الكنيســة حتى يمكنه أن يذهب بعيدا عن هنا .

تقوست شفتا « بترز » قائلا :

— الآن ، أيها الأخوة ، لن يحدث هذا أبدا .

فسيمسكون به هناك . وعلى أى حال ، اذا أمسكوا به هناك ، فسيحطمنا ذلك جميعا . علينا أن نبعد الصبى عن البلدة ...

أتجه « ساندوز » نحو الرجل العجوز . وقال فى همس :

— أســمع يا بنى ، هل ســيحمل الشخص الذى يســافر الى شركة «ماجنوليا الكسبرس » بضائع فى عربته الى شيكاغو فى الصباح . اذا استطعنا اخفاء « بج بوى » فى أى مكان حتى الصباح ، يمكننا ان نضعه فى العربة .

قال « بج بوى » ملتمسا :

— أبى ، اذا سمحت ، دعنى أذهب مع « ويل » عندما يسافر فى الصباح .

فحدق الرجل العجوز فى « ساندوز » قائلا :

— هل تعتقد أن ذلك هو الحل السليم ؟

قال « بترز » :

— انه الشىء الوحيد الذى يمكنك ان تفعله .

— لكن أين سنخبئه حتى ذلك الحين ؟

ـــ فى أى وقت ستسافر أيها الصبى فى الصباح ؟

ـــ فى السادسة .

كانوا هادئين ، يفكرون . وغلى الماء فى الغلاية التى على الموقد .

ـــ أبتاه ، انى أعرف أين يمر « ويل » بالعربة خارجا على طريق « بولارد » ، أستطيع أن أختبىء فى واحدة من القمائن ..

ـــ أين ؟

ـــ فى أحدى قمائنهم التى نبنيها ...

فأتت الأم قائلة :

ـــ لكنهم سيمسكون بك هناك .

ـــ لكن ليس هناك أى مكان غيره ليذهب اليه .

قال « بج بوى » :

ـــ هناك حفر كبيرة بدرجة تمكننى من البقاء حتى يمر « ويل » ولو سمحت ، يا والدى دعنى أذهب قبل أن يمسكوا بى .

ـــ دعه يذهب .

ـــ لو سمحت يا أبى ...

تنفس الرجل العجوز عميقا .

ـــ « لوسى » أحضرى حاجاته .

قالت الأم بحزن ، ملقية بنفسها على « بج بوى » :

— « سول » ، سيمسكون به فى الخارج هناك .

فجذبها « بترز » بعيدا .

— ايتها الأخت « موريسون » ، اذا لم تدعيه يذهب بعيدا عن هنا فسيمسكون به ويذهب الى حيث اله السماء .

جاءت « لوسى » تجرى بحذاء « بج بوى » ووضعته فى قدميه . وثبت الرجل العجوز قبعته على رأسه . وذهبت الأم الى الموقد وأفرغت فطيرة الذرة فى مريلتها ، ولفتها ، وفكت أزرار معطف « بج بوى » ، ووضعتها ودفعتها فى فتحة صدره .

— هذه بعض الأشياء لتأكلها ، صل يا « بج بوى » ، لأن ذلك هو كل ما يستطيع أى شخص أن يفعله الآن ...

شد « بج بوى » الى الباب ، وامه متعلقة به .

— دعيه يذهب ، أيتها الأخت موريسون .

— أجر بسرعة ، يا « بج بوى »

جرى « بج بوى » عبر الفناء ، مبعثرا الدواجن وتوقف عند السور . والتفت الى الخلف قائلا :

— اخبروا بوبو أين أنا واخبروه بأن يأتى .

— ٤ —

أتجه الى خط السكة الحديد ، جاريا مباشرة نحو الشمس الغاربة ، وامسك بيده اليسرى جيدا على قلبه قابضا على لفة

خبز الذرة حيث وضعت . فى الوقت الذى يتعثر من القيود ، لأن حذاءه كان مقيدا ويؤلم قدميه . وزوره متفجر بالجفاف ، فلم يجر به ماء منذ الظهر .

وعبر الخط الحديدى وأجتاز قمة تل ، متتبعا طريق «بولارد» ، انزلقت قدماه وغاصتا فى التراب . أحتفظ بعينيه فى وضع راسى مستقيم ، خائفا من هذه الشجرة ، كل شـجرة . تمنى لو كان الليل قد أرخى سدوله الآن لأمكنه فقط أن يصل الى القمائن دون أن يقابل أحـدا . وفجأة جاءته فكرة كالضربة ، أعتاد سماع جماعات العجائز يحكون أقاصيص عن كلاب الصـيد الدامية ، وجعله الخوف يبطىء فى جريه . لم يفكر أحد منهم فى ذلك لنفرض أن كلاب الصيد الدامية وضعت فى طريقه ؟ يا للسوء . لنفرض أن مجموعة منهـا عوت ومزقته أربا ؟ فسـار هادئا ، وزحفت قدماه . نعم ، هذا ما سيرسلونه خلفه ، كلاب الصـيد شاربة الدماء . وعندئذ لن يكون أمامه أى طريق للهرب . لمـاذا لم يدعه أبوه يأخذ البندقية . وعندما تأتى الجماعة الفتاكة فانه سيأخذ البعض معه .

على البعد سمع قطارا يقترب . صدمه ورده الى احسـاس حـاد بالخطر فجرى ثانية ، قدماه الكبيرتان ترتفعان وتنخفضان فى التراب . كان متعبا وكادت رئتاه تنفجران من الجرى . بلل شفتيه ، متعطشا للماء . وعندما تحول عن الطريق عبر حقـل محروث ، سمع القطار يزأر فى اعقابه . فزاد من سرعة جريه . وملأه الرعب .

كان هناك قريبا الآن . كان يمكنه رؤية طين القمينة الأسود على جانب التل المنحدر . اذا دخل مرة والحدة فى قمينة فسيصبح فى أمان . وللحظة قصيرة أخيرا . فكر فى البندقية مرة ثانية .

اذا كان معه ــ فقط أى شىء أو أى شخص يتكلم معه .. لكان هذا مريحا « بوبو » لو كان « بوبو » معه .. لقد نسى « بوبو » تقريبا . ســـيحضر « بوبو » بندقيته ، هو يعرف انه ســـيفعل هـــذا . وعندئذ سيستطيعان معا قتل كل الجماعة المتعطشـــة لسفك الدماء . ثم فى الصباح سيدخلان فى عربة « ويل » ويذهبان بعيدا الى « شيكاغو » ..

وتباطأ سائرا ، وهو ينظر الى الخلف والى الامام . وهبت ريح خفيفة فوق الحشائش . وقفز صرصور على خده فأزاحه بعيدا وبجوار الأشـــجار تعلقت شمس حمراء وطارت حشرتان كبيرتان أمام تلك الشمس . وارتعد فقد صار باردا وكان العرق الذى على جسده يجف .

ووقف عند أسفل تل محاولا أن يختار بين أثنتين من القمائن شامختين عاليتين فوقه . وذهب الى اليسرى ، لأنها كانت المكان الذى حفره مع « بوبو » و « لستر » و « بوك » ، فى الأسبوع الأخير .. ونظر حوله مرة ثانية ، كانت الأرض مقفرة . وصـــعد الى الجسر ووقف عند صف من الحفر التى يصل عمقها الى أربعة أو خمسة أقـــدام فى الأض . وذهب الى أكبرها ونزل فيهـــا . وتصلب عندما التقطت أذناه صوت شىء مر سريعا . فجـــرى الى الخلف خطوات قليلة وركع على أطراف أصابعه . كانت سته أقدام من حية منزلقة خارج الحفرة وغاصة داخل التراب . نظر « بج بوى » حوله جيدا باحثا عن عصا . وجرى أسفل المنحدر، محدقا فى العشب . وقفز متعلقا بفرع شجرة . فخلعه وأختبره بضربة فى الأرض . وزحف بحـــذر صاعدا المنحدر وعصـــاه مصوبة . وعندما صار على بعد ســـبعة أقدام من الحية توقف وحرك العصا . تعقدت الحية ، وأرتفع صوت فحيحها ، وأستعد

رأس مفلطح للضرب . فتحرك الى اليمين ، وتبعه الراس المفلطح واللسان الأسود المختلط بالأزرق يقذف بعيدا ما يشبه الشرر ، فتحرك الى اليسار ، وتبعه الرأس المفلطح الى هناك ايضا .

وقف ، يصر على أسنانه كان عليه أن يقتل هذه الحية ، قبل أن تقتله . كانت هذه أسلم حفرة على جانب التل . حرك العصا ثانية ، ناظرا الى الحيـــة مفكرا فى الجماعة المتعطشة الى سفك الدماء بجانبه . فقفز الرأس المفلطح لارتفاع أعلى ، وقفز بعصاه على كتفه ، ملوحا . اخترقت العصا الهواء ، ممسكة بالحية عند جانب رأسها ، مبعدة اياها عن التفاف الجسم . كانت هنـــاك شعلة الم . ثم صار « بيج بوى » موجهـــا الضربات القاسية ، الواحدة تلو الاخرى . حارب بقسوة حتى احمرت عيناه ، وظل يضرب حتى رقدت الحية ساكنة ، ثم داسها بكعبه ، دافنا رأسها فى الطين .

ووقف مترنحا مبللا وزوايا شفتيه بيضـــاء ممتلئة بالرغـــاء . وبصق وارتعد .

وبحذر ، ذهب الى الحفرة وحدق . وأراد عود ثقـــاب . وتخيل أن باقى الحيات هناك فى انتظاره . فوضع العصا فى الحفرة وحركها حولها وتوقف ، محدقا مرة ثانية . لابد أن كل شىء على ما يرام . ونظر عبر جانب التل ، وتراجعت عينـــاه الى الحيـــة الميتـــة . ثم ركع على قدميه وهبط بظهره ببطء داخل الحفرة .

وعندما صار بداخلها ، شعر بأنه لابـــد هنـــاك حيات فى اثره مستعدة لضربه . وبدا كأنه يستطيع أن يراها ويشعر بهـــا هناك ، منتظرة بترقب فى التفاف ، وفى الظـــلام تصور أنيابا طويلة بيضاء مستعدة للغوص فى رقبته ، فى جانبـــه ، فى ساقيه . وأراد أن

ـرج من الحفرة ، لكنه ظل ساكنا . وقـــال لنفسه ، بأنــه لو كانت هنا اى حيات ، لكانت عضته فى الحال . وفارقه بعض خوفه ، وارتاح .

واستقر بمرفقيه على الارض ، وذقنه على كفيه . كانت التربة باردة على ركبتيه وجلد ساقيه ، لكن صدره ظل دائما بحـــرارة فطيرة الذرة . وعاوده عطشه . وود لو يشرب . وكان جائعـــا أيضا . لكنه لم يكن يريد أن يأكل فطيرة الذرة . الآن ، ليس الآن. ربما بعد مدة قصيرة ، بعدما يأتى « بوبو » . وعندئذ يأكلان معا فطيرة الذرة .

كان المنظر من حفرته مشوبا بفروع الحشائش . كان يمكنـــه أن يرى كل الطريق المؤدى الى طريق « بولارد » ، وحتى ما حوله كانت الريح تهب ، وفى الشرق كانت أول مسة من الغبار ترتفـــع. وفى كل لحظة يطفو طائر عابر وبقعة من السواد السريع مطبوعة على صفحة السماء . سعل « بج بوى » ، وحرك ثقله ، وقضـــم حفنة من العشب وطن « زنبور » . وسمع الرقم تسعة ، بعيـــدا وكثيبا .

وذكره القطار كيف حفروا هذه القمائن فى أيام الصيف الطويلة الحارة كيف صنعوا الفلايات من قدور ضخمة دقيقـــة وملأوها بالمـــاء ، ووضعوا الاغطية للبخار ، وثبتوها فى حفرات الصلصال الرطب ، وأشعلوا النيران حولها . وتذكر كيف كانوا يرقصـــون ويصيحون عنـــدما يطير غطاء فوق غلاية ، مفسحا الطريـــق لدفعة كبيرة من البخار ومحدثا صفارة حادة . كانت لديهم فسحة من الوقت عنـــدما كانوا يملكون جانب التل ، يحملقون ويدخنون. نعم ، أنت ترى يا « بج بوى » كان « كاری جونس » مسرعا بها

الى خطوط « الباسفيك » الجنــوبية . كان « لبوبو » الرقــم اثنين فى « ساتتانى » . وكان « بوك » فى « الالينوى » الرئيسى . وكان « لستر » فى « النيكل بليت » . فكيف يغلفون الخشب . سيتبخر المــاء المغلى من القدور ويجعلها تفقد فى الصلصال . وشيئا فشيئا ستسقط أوراق الاشجار الجافة فى القدور .وسيزداد ارتفــاع شعلات اللهب ، وسيكون عليهم أن يحموا عيونهم . ويتدفق العرق من وجوههم . ثم فجــأة ، سينطلق صمام خشبى عاليا فى الهواء ، ويدوى .

سطل « بج بوى » وفرد ذراعيــه ، مبعدا شــعلات اللهب ومبعثرا الدخان . لمــاذا لم يأت « بوبو » ؟ ونظــر عبر الحقول، لم يكن هنــاك شىء سوى ضوء الشمس الميت . وعاد ذهنــه ثانية الى القمائن . وتذكر اليــوم الذى كان فيه « بوك » يناقسه على نجاحه ، وحاول أن يفسد قمينته . نعم هذا الولد ابن الكلبة. لا ، يا الهى . لم يكن سيقول ذلك . ما الذى يفكر فيــه الآن ؟ يسب الميت . نعم ، فالمسكين « بوك » ميت الآن . « ولستر » أيضا . نعم ، كان صوابا أن يفسد « بوك » قمينته . أترى . وود لو لم يضرب « بوك » ضربا عنيفا فى هذا اليوم . كان آســفا لــ « بوك » الآن وود لو لم يسب أم « بوك » المسكين ، كذلك كان هذا بغيضا . ربما خلقه الله لهذا ؟ لكنه لم يقصد أن يفعله. مسكين « بوك » مسكين « لستر » لم يعــاملا أبدا أى شخص بمثل هذه المعاملة ، ابدا ..

كان الظلام يتعمق ببطء . وفى مكان ما ، لم يستطع أن يحدده كانت جرادة ترسل أغنيــة متقطعة . وكان الهــواء يزداد نعومة وثقلا . ونظر عبر الحقول ، باحثا عن « بوبو » ..

وحرك جسمه ليلتقى برطوبة الارض المظلمة ، وعاد بفكره الى

حوادث اليوم . نعم ، عندما خرج لم يكن يريد ان يسبح . ولو اتبع عقله الواعى لم يكن ليذهب ابدا ليقع فى كل هذه المشاكل . فى البدء قال الآن . لكن الصـــدمات ذهبت بالباقى . نعم ، كان عليـــه أن يذهب هـــذا الصباح الى المدرسة كما قالت له امه . لكن ، يا الجحيم، من لا يتضايق من نفسه غصبا الى المدرسة هذا ما جعل « بج بوى » يبتعد عن المدرسة . لم تكن تحـــدث أى متاعب لو لم تكن مدرسة « جواديم » هذه . ويصبر ناقد ، اخرج العشـــب من فمه والقـــاه بعيدا مخربا مبنى المدرسة الحمراء الصغيرة ..

نعم ، لو ظلوا ساكنين وهادئين عنـــدما ظهرت هذه المـــرأة البيضاء فربما ذهبت ، لكنك لا يمكنك ابدا أن تتكلم هنا وســـط البيض . ربما لم تذهب وربما قتلهم هذا الرجل الابيض . جميعا . جميعهم . نعم فلا يمكنك أن تتحدث هنا وسط البيض ، وعندئذ ، ربما ذهبت المرأة البيضاء بعيدا وضحكت . نعم وربما يقـــول هذا الرجل الابيض : ايهـــا الزنوج الخـــونة اذهبـــوا الى الجحيـــم بعيدا عن هنا . انتم تعلمون ما سيفعله « جواديم » بكم هنا . وعندئذ سيمسكون اذيالهم ويجرون ..وابعد الرجل الابيض عن مخيلته . أين كان « بوبو » ؟ لمـــاذا لم يسرع ويحضر ؟

واختطف حفنة أخرى وقضمها . نعم ، ولو تركه ابوه يأخذ هذه البندقية . لاستطاع ان يوقف جماعة كاملة متعطشة للدماء ببندقية. ونظر الى الأرض كمن يقلب بندقية بين يديه . ثم صوبهـــا الى رجل أبيض يتقدم ، يا للجحيم .. والتوى الرجـــل متراجعا . وجـــاء آخـــر . فاستعاد حمله بسرعة ، وتركه يرى ما أحضره الآخر . فالتوى هو الآخـــر متراجعا . ثم اتى شخص آخـــر . وأحضر نفس الدواء .. ثم تجمع الحشد الوحشى حوله ، فحدق بعيـــدا ، على قدر استطاعته . وضيقوا الحلقـــة عليـــه . لكن، يا رب ، لقد فعل ما عليـــه ، الم يفعل ؟ والصـــحف تقـــول :

زنجي يقتـــل اثنى عشر من جماعة قبـــل أن تقتص منـــه وعندئذ قد يقولون : الزنجي الهارب يغتـــال عشرين قبـــل أن يقتـــل . وابتســـم قليـــلا . سيكون هـــذا فى منتهى الســـوء ، اليس كذلك ؟ وابعد الصـــحف عن مخيلته ، ونظر عبر الحقـــول . اين كان « بوبو » ؟ لمـــاذا لم يسرع ويحضر ؟ وتحـــرك . محـــاولا أن يزيل المـــاء من ساقيه . يا للسوء ، لقـــد صار هـــذا يتعبه وبدأ الظـــــلام الآن . نعـــم ، كانت هنـــاك نجمة صـــغيرة تتلألأ بعيـــدا ناحيـــة الشرق . ربما لم يكن الرجل الابيض ميتا ؟ ربما لم يكونوا حتى يبحثون عنـــه ؟ ربما يمكنه الآن ان يعـــود الى المنـــزل ؟ الآن ، من الافضل ان ينتظر قليلا . سيكون هذا افضل. لكن يا الهى ، لو ينـــال فقط بعض المـــاء . انه يبتلع بصعوبة ، كان حلقـــه جـــافا للغـــاية . « جواديم » وجماعات البيض . هذا كل ما يمتازون به ، فى مطـــاردة زنجي كالأرنب . نعـــم ، لقـــد حصروك فى ركن ، ثم سيدعونك تنـــال العقـــاب الفـــا منهم ، وارتعـــد ، لأن برودة الصلصال تثلج عظـــامه يا رب ، لنفرض أنهم وجـــدوه هنـــا فى هذه الحفرة . وبدون اى شخص ينقذه ؟ .. لكن لا فائدة من التفكير فى ذلك ، انتظـــر حتى تأتى المتاعب ، فتواصل محاربتها . لكن اذا جاءت هـــذه الجماعة واحـــدا واحـــدا فسيقضى عليهم جميعا . نظف هذه الجماعة بأكملها . فأمسك واحـــدا من العنـــق . وضربه طويلا وبعنف ضربة حتى برز لســـانه وعينـــاه . ثم قفز على صدره وداسه كما داس تلك الحيـــة . وعنـــدما انتهى واحـــد جـــاء آخر . فلكمه أيضا . لكمة قوية حتى انزلق ببطء الى الأرض . راكما ..

« هـــالو .. »

قبض « بج بوى » باصبعه على رقبـــة الرجل الابيض ونظـــر عبر الحقـــول فلم ير أحـــدا . هل تجسس عليـــه احـــد ؟ كان

واثقا من أحــدا صاح . وخفــق قلبــه لكن يا للغرابة لا يمكن لأحد أن يراه هنــا فى هذه الحفرة . لكن ربمــا رأوه عنــدما كان آتيــا واختبأوا وهم الآن يضيقون الحلقــة عليــه . ربمــا كانوا يلوحون بالاشارات الى الآخرين ؟

نعم ، كانوا يزحفــون نحــوه . ربما كان عليــه أن ينهض ويجــرى .. آه ربما كان ذلك بوبو . نعــم . بوبو . عليــه أن يتسلق لأعلى ويرى اذا ما كان « بوبو » يبحــث عنــه .. وتصلب .

— هالــو .

— هالــو .

— أين انت ؟

— هنا على طريق « بولارد » .

— تعال أظهر .

— حســنا .

وسمع خطــوات اقــدام . ثم جاءت الاصوات ثانية . خافتة وبعيدة هذه المــرة .

— هل ترى أحــدا ؟

— لا . وانت ؟

— لا ..

— هل تعتقد انهم ذهبوا بعيدا ؟

— لا اظن . من الصعب قول ذلك .

تلاميذ « جواديم » الزنوج أولاد الكلاب .

ـ ستقتل كل أسود لقيط فى هذه البلدة .

ـ حسنا يا جيم أحضر اثنين منهم على أى حال .

ـ لكن « برثا » قالت انهم كانوا أربعة .

ـ فى أى جحيم اختبأوا ؟

قالت هى أن واحدا منهم كان يدعى « بج بوى » أو شىء ما مثل هذا . ذهبنا الى كوخه لنبحث عنه .

ـ نعم ؟

ـ لكننا لم نجده .

ـ هؤلاء الزنوج متكتلون فلا يمكن أن يبوحوا باى شىء عن بعضهم البعض .

لقد فحصنا الكوخ بأبصارنا ولم نستطع العثور على شعرة واحدة منه . ثم دفعنا المرأة العجوز والرجل العجوز الى خارج الكوخ واشعلنا فيه النار .

ـ يا للحظ . تمنيت لو كنت هناك .

ـ لكنت سمعت المرأة الزنجية العجوز تنتحب .

ـ هالو .

ـ تعالوا عابرين .

أمسك « بج بوى » بالحافة وحدق . فرأى رجلا ابيض

ببندقية تترنح على كتفه يجـــرى أسفل المنحدر ، هل هم ذاهبون ليبحثوا فى التل ؟ يا رب لم يكن امامـــه اى طريـــق ليذهب اليـــه بعيـــدا لقـــد قبض عليـــه . كان يعلم انهم سيمسكون به هنا . وليس معـــه شىء أى شىء ليحارب به . نعم . وبمجـــرد ما تقترب كلاب الصيد المتوحشة سيجدونه . يا رب . الرحمة . سيقتصون منه هنا على التل .. سيحضرونه ويربطونه الى عامود ويحرقونه حيا . يا رب لا أحد سوى الاله الطيب يستطيع انقـــاذه ، الآن لا أحـــد .

سمع مزيدا من الاقـــدام تجرى . وانزوى لأعمق . وتقوس صدره . لا أحـــد سوى الاله الطيب يمكنـــه انقـــاذه الآن . كانوا يتجمعون حوله جميعا وعندما يكونون جماعة كبيرة سينقضون عليه . وسينتهى كل شىء .. سينقذه الاله الطيب لانـــه لا احـــد يستطيع انقـــاذه الآن . لا أحـــد ..

ثم فقـــد الاحساس عنـــدما تذكر « بوبو » لنفترض أن بوبو جـــاء الآن ؟ .. سيمسكون به بالتـــاكيد . وسيقع كلاهما فى أيديهم . سيجعلون بوبو يبوح بمكانه . يجب على بوبو الا يحـــاول الحضور الآن . يجب أن يخبره أحـــد بذلك . لكن لم يكن هنـــاك أحـــد لم يكن هنـــاك اى سبيل .. وتعلق ببطء الى الفتحـــة كان هنـــاك جمـــع كبير من الرجـــال وكثيرون آتون . وكثيرون معهم بنـــادق .. وبعضهم يحملون لفائف من الحبـــال معلقـــة على أكتافهم .

— قلت لكم أنهم مازالوا هنا فى مكان ما .

— لكننا بحثنا فى كل المـــكان .

— ماذا ، يا للجحيم ، اتودون أن تدعوه يذهب بعيدا عن هنا .

ـــ الأن . الذن ذهبوا بعيدا عن هنا .. فلن تكون هنـــاك امرأة آمنـــة فى هذه البلدة ..

ـــ قل . ما هذا الذى احضرته ؟

ـــ هذا عمود ..

ـــ لأى شىء ؟

ـــ للجلد يا أغبيـــاء ..

ـــ حسنا . سيكون هذا ساخنا اذا امكننا الامساك بهـــؤلاء الزنوج .

ـــ قال اندرسون انه كان ذاهبا لاحضار برميل قار ..

ـــ أحضرت بعض البنزين فى عربتى اذا احتجت اليه .

لم يعد لدى بج بوى اى احساس الآن .. كان منتظرا . ولم يفكر فيما اذا كانوا قادمين فى اثره .. انتظر فحسب . ولم يفـــكر فى بوبو واراح خده على الصلصال البـــارد منتظرا .

نبح كلب . فتصلب . نبح مرة ثانية . فكور نفسه فى فجـــوة داخل قـــاع الحفرة منتظرا ثم سمع وقـــع أقـــدام كلب

ـــ انظـــر .

ـــ ما الذى أحضره ؟

ـــ انهـــا حيـــة .

- نعم . وجـد الكلب حيـة .

ـــ آه انهـا حيـة كبيرة .

ـــ يا للحظ اتمنى لو استطاع ان يعثر على واحـد من الزنوج أولاد الكلب .

وغاصت الأصوات الى غمغمة منخفضة . ثم سمع الرقم اثنى عشر . كان جرسه يرن ويصفر صائحا كلما انزلق طوال الخطوط الحديدية . وسوى نفسه بحذاء الصلصال .

كان احدهم يغني :

ـــ سنعلق كل زنجى فى شجرة تفاح ..

وعندما انتهت الأغنية كان هناك ضـحك عات . ومن الجانب الآخر للتل سمع الكلب ينبح بتجفز . فأنصت.كان هناك أكثر من كلب الآن . كان هناك كثيرون وكانت حناجرهم تدفع بالنبـاح الى خارجها .

ـــ هس . انى اسمع الكلاب .

ـــ عندما يتبجون هكذا فهذا يعني انهم وجدوا شيئا ما .

ـــ انهم قادمون هنا عبر التل .

ـــ امسكنا به امسكنا به .

وجاء زئير من هناك . لابد أنه بوبو . لابد أنه بوبو ..

وعلى الرغـم من خوفه . فقـد نظر بج بوى . كان الطريق ونصف جانب التل عبر الطريق ، مغمورين بالرجال . كان هناك قلائل على قمة التل . وسط السماء . كان يمكنه ان يرى الكتل القائمة تتحرك صاعدة المنحدرات . كانوا يصيحون .

— يا الله . امسكنا به .

— تعالــوا .

— اين هو ؟

— انهم قادمون به فوق التل .

— أحضرت حبلا له .

— قل لأحدهم ان يذهب ويحضر الآخرين .

— أين هو ؟ الا نستطيع رؤيته يا مستر ؟

— يقولون ان برناس قادم أيضـــا .

— جاك . جاك . لا تتركنى أريد أن أراه .

— كانوا قادمين به عبر التل . العزيز .

— اريد أن أكون أول من يضع حبلا حول عنق هــذا اللقيط الأســود .

— هيا نعد النار .

— اشـــعل القار .

— أحضرت بعض السلاسل لنصفره .

— أحضروه من هذا الطريق .

— يا رب وددت لو معى شراب .

شاهد بج بوى الرجال يتحركون عبر التل . وبينهم كانت بقعة طويلة داكنة . لابد أنه بوبو . لابد انه بوبو . الذى يحملونه .. سيحضرونه الى هنا . يجب عليه أن ينهض ويجرى . وصر علــى

أسنانه ومر بيده سريعا على جبهته . وانزلها مبللة . حاول أن يبتلع ريقه . لكنه لم يستطع . كان حلقه جافا .

لقد عاودوا الأغنية ثانية :

« سنعلق كل زنجى الى شجرة تفاح .. »

كانت هناك نساء تغنى . وجعلت أصواتهن الأغنية دائرة ومنغمة . ودارت موجات الأغنية فوق قمم الأشجار . وبدت السماء منخفضة ومثقلة بالسحب . والريح اخذت تنهض وصرخات الحشرات ترتفع بشكل مثير للدهشة خارقة أغنية الجمع . وذهب كلب الى أعلى قمة التل . وعند نهاية كل مقطع من الأغنية يطفو نباحه فى الليل .

تضاءل بج بوى عندما رأى الشعلة الأولى تضىء جانب التل . هل سيرونه هنا ؟ ثم تذكر : انك لا تستطيع أن ترى فى الظلام اذا كنت واقفا فى النور . وما أن ارتفعت الشعلات لأعلى حتى شاهد رجلين يدفعان برميلين الى أعلى المنحدر .

— قل . أعطونا يدا هنا ، الا تقول ؟

— حسنا سأفعل .

— تعال . رأسا لأعلى . أذهب الى الطرف الآخر .

— أحضرت الجلود هنا فى هذا العمود .

— أحضر مزيدا من الخشب .

كان بامكان بج بوى أن يرى البرميل محاطا بشعلات اللهب . ويسقطت الجماعة للخلف . مشكلة دائرة مظلمة . لقد وجدوه

هنا . أن لديه رغبة قوية ليتسلق خارج الحفرة ويطير عبر التلال لكن ساقيه لم تتحرك . فحدق بصعوبة محاولا العثور على بوبو ولمعت عيناه على بقعة طويلة داكنة قرب النار .. وزادت الريح شعلات النيران ارتفاعا . فقفز وتحركت هذه البقعة الداكنة . يا الهى هذا بوبو . هذا بوبو ..

وشم رائحة القار ضعيفة فى بادىء الأمر ثم حملها الهواء عنيفة الى وجهه ثم طردها بعيدا . والتهبت عيناه فمسحها بمؤخرة أصابعه وتنهد !

هيا نستعيد الذكريات .

شاهد الجمع ملتفا فى دائرة حول النار . كانت وجوههم قاسية وحارة فى ضوء اللهب . وكان مزيد من الرجال والنساء قادمين عبر التل . وكانت البقعة الطويلة السوداء قد مسحت .

ــ كل شخص يرجع الى الخلف .

ــ انظر انه يخلع أصبعا .

ــ تعال . أبعد هذا عن النار .

ــ لقد خلع احدى اذنيه . هل ترى ؟

ــ ماذا حدث ؟

سقطت المرأة . مغمى عليها كما أظن ..

ملأت رائحة القار المتصاعدة جانب التل . كانت السماء سوداء والريح تهب بعنف .

ــ اسرع واحرق الزنجى لأنها تمطر .

شـــاهد بج بوى الجمع يســقط متراجعا للخلف تاركا بقعة صغيرة من الرجال حول النار . ثم نظر — للمرة الأولى — نظرة كاملة لـ « يوبو » . جسد أسود يتوهج فى الضوء كان بوبو يناضل . مقيدا . كانوا مقيدين ذراعيه وساقيه .

عندما شاهدهم يدحرجون البرميل تصلب . وندت عنه صرخة، فعلم أن القار كان على بوبو . وتراجع الجمع للخلف . وشاهد جسدا مغمورا بالقار يتقلب ويدور .

لقد نالها اللقطاء .

كان هناك هدوء مفاجىء . ثم تضاءل بعنف عندما حملت الريح كعاصفة ثلجية دوامة واسعة من الجلود البيضاء وسط الليل . وأرتفعت السنة اللهب طويلة كالأشجار . وجاءت الصرخة ثانية فأرتعد بج بوى ونظر . كان الجمع يجرون أســفل المنحدرات تاركين النار واضحة . ثم رأى كتلة من الدخان الأبيض مختلطا بشعلة صفراء وسمع الصرخات الواحدة فى أعقاب الأخرى وكل واحدة أقصر من الســابقة . كان الجمـــع هادئا الآن . ووقفوا فى سكون ناظرين الى أعلى المنحـــدرات وكتلة الدخان الأبيض تصير سوداء بالتدريج تصير سوداء مختلطة بمولد شعلة صفراء.

— ضع مزيدا من البنزين .

— أمنحه قليلا من الحياة ... الم تمنحه ؟

كان رجلان يناضلان حاملين بينهما قدرا ثقيلا . ووضعاه أرضا ودحرجاه وتركاه بحيث يســيل البنزين الى الأرض المنخفضـــة حول النار .

. أنزلق بج بوى الى الخلف فى الحفرة . وجهه قد دفن فى الصلصال . ليس لديه أى مشاعر الآن . أى مخاوف ؟ كان متجمدا فارغا كأنما قد سحب منه كل دمه . ثم أرتعدت عضلاته عندما سمع حركة ضعيفة . وسال شريط رفيع من الماء البارد على ركبتيه جعله يندفع الى الخلف الى بقعة أجف . ونظر الى أعلى كان المطر يضرب فى القشب .

ــ انها تمطر .

ــ تعالوا . هيا نذهب الى البلدة .

ــ لا تقلقوا . فعندما تدخل النار فى أعماقه سيكون قد رحل .

ــ أنتظر . يا تشارلس لا تتركنى انها زلقة هنا ..

ــ سأحمل بعض سيداتك فى عربتى .

سمع بج بوى الكلاب تنبح مرة ثانية . وفى هذه المرة كان النباح أكثر التصاقا . وسمع بعض أقدام تجرى . تجرى مسرعة متلاحقة للأمام . وغمر الماء البارد قدميه . كان يمكنه سماع قطرات الماء فى سكونها المسرع . وهنا نبح كلب عند فوهة الحفرة . نبح بشدة شاعرا بوجود أحد بها . فكور نفسه داخل بقعة والتصق بالقاع وركبتاه وذقنه مدفونة فى الماء ، أزداد أرتفاع النباح . وسمع المخالب تحفر وشعر بالرائحة الساخنة لكلب يتنفس على وجهه . لمعت العيون الخضراء وصارت قريبة كالنباح . الذى انخفض بفعل الالتصاق بالحفرة . واخذ يدق طبول أذنيه فتراجع الى الخلف حتى ضغط كتفاه على الصلصال . وكتم أنفاسه . وأخرج يديه وأصابعه المتصلبة . عوى الكلب بصوت أعلى . مقتربا بنباحه الذى تزداد حدته وارتفاعه . نهض بج بوى على ركبتيه ويداه أمامه . ثم أستوى

وظل ملتصقا بالقاع متنفسا أنفاسا مليئة بنفس الكلب الساخن ، متنفسا بصعوبة . ولكن بسرعة . ازداد الكلب التصاقا .. مسببا أنفاسا أكثر خشونة . ولم يستطع بج بوى الرجوع الى الخلف أكثر من ذلك . كانت ركبتاه غارقتين منزلقتين فى الماء وامسك بتفسه مستعدا . ثم . لم يعرف أبدا بالضبط كيف لم يعرف أبدا ما اذا كان هو قد اندفع أو الكلب هو الذى اندفع — صارا يتقلبان معا فى الماء كانت العيون الخضراء تحته . بين ساقيه . ضربت أظافر الكلب فى ذراعيه وانزلقت ركبتاه الى الخلف فأراحهما على الكلب . ووقع تنفس الكلب فى اضطراب سريع وبالفطرة حاول الامساك بحلق الكلب عندما أحس به يقبع بين ركبتيه .. عوى الكلب طويلا فى صوت خافت كأنما يستجمع قوته . ودار بج بوى بيديه بنعومة على ظهر الكلب . باحثا عن الحلق فأحس بأظافر الكلب مرة ثانية ورأى عينيه الخضراوين . لكن أصابعه وجدت الحلق . كتم تنفسه شاعرا بأصابعه تغوص وكتم تنفسه ملقيا برأسه الى الخلف ومشددا ذراعيه . وشعر بجسم الكلب يثقل وبأظافره تحفر فى فخذيه . وبقوة منبعثة من الخوف .. اطبق بأصابعه دافعا بكل ثقله على عنق الكلب . فثقل الكلب ثانية .. ورقد ساكنا .. وسمع بج بوى صوت تنفسه يملأ الحفرة وسمع صيحات ووقع أقدام قوته مبتعدة . ولمدة طويلة أمسك بالكلب .. أمسك به طويلا بعد موت آخر خطوة . طويلا اذ توقف المطر .

— ٥ —

طلع عليه الصباح وهو قابع على ركبتيه فى بركة من ماء المطر محدقا فى جسم الكلب المتصلب . وعندما تلون الهواء ابتدأ يفيق لنفسه ببطء وظل ساكنا لوقت طويل . كأنما يستيقظ من حلم . وكأنما يحاول أن يتذكر .

وجاء صوت العربة عبر التل . فحاول أن يتسلق ممر الفتحة . كانت ركبتاه متصلبتين وقدماه تؤلمانه ألما أشبه بوخز آلاف من الأبر كألم الرصاص ، وكان الألم يتصاعد من قاع قدميه الى بطن ساقيه وهز الدوار المرئيات أمام عينيه فصعد لأعلى ونظر ، وفى الضوء اللامع رأى عربة « ويل » تقف على بعد خمس وعشرين ياردة تقريبا . كانت الماكينة تدور . ووقف « ويل » عند الطريق ناظرا عبر منحدرات التل ..

تفز بج بوى خارجا فسقط بضعف فوق العشب الرطب . حاول أن ينادى ويل . لكن حلقه الجاف لم يخرج أى صوت . فحاول مرة ثانية .

— ويــل .

سمع ويل مجيبا .

— بج بوى تعال .

وحاول أن يجرى فسقط فأسرع اليه « ويل » فى العشب الطويل وأمسك بذراعه قائلا :

— تعــال .

ثم رفعه الى الطريق وقال :

— اسرع ..

دفــع ويل بابا جانبيا مربعا معلقا فوق ظهر مقعد السائق وجذب بج بوى الى الداخل .. مستقرا بتهالك فى القاع . ومن بين ركبتيه وساقيه نظر حوله فى الظلام الذاهب .

— اين بوبو ؟

حملق بج بوى :

— أين بوبو ؟

— امسكوا به .

— متى ؟

— الليلة الماضية .

— الجماعة السفاكة .

أشار بج بوى فى اتجاه شجرة صغيرة على منحدر من التل المقابل . فنظر ويل . سقط الباب الجانبى . ودارت الماكينة وتحركت العجلات واندفعت العربة للأمام عبر الطريق المملوء بالوحل وطوحت ببج بوى على جانبه . وظل لحظة راقدا حيث سقط على جانبه . أضعف من أن يتحرك . وما ان شعر بالعربة تدور حول منحنى حتى أعتدل وأراح ظهره الى صف من الصناديق الخشبية .

ومن ثقبين طويلين سقطت أشعة رفيعة من ضوء النهار . كانت أرضية العربة من الصلب الأملس ، وباردة كعظامه . وأخذت الأشجار الصغيرة وذرات الغبار تتراقص بمرور العربة. وكلما دار حول منحن كان يجذب الى الأرضية . فأمسك بزوايا الصناديق ليثبت نفسه . وسمع مرة صياح الديكة . مما جعله يفكر فى البيت ، فى صوت ولديه . وفكر فى انه تذكر سماعه فى مكان ما عند احتراق البيت لكنه لم يتذكر اين سمع ذلك . فكل ذلك بدا غير حقيقى الآن .

كان متعبا . فغلبه النعاس ثم استلقى على الأرض . ثم قفز مستيقظا . كانت العربة تجرى مستوية على الأرض المرصوفة

ومن بعيد تدوى صــــفارتان قصيرتان من طاحونة ، لقد بكى ، وبلا وعى جرت الفكرة بذهنه : انها الساعة السادسة ..

فتح الباب الجانبى . وتكلم ويل من جانب فمه .

— كيف أصبحت ؟

— حســـنا .

— كيف أمسكو بـ « بوبو » ؟

— كان قادما عبر التل .

— ماذا فعلوا ؟

— أحرقوه ... ويل . أريد بعض المـــاء فحلقى كالنار ..

— سنتناوله عندما نمر بمحطة بنزين نتزود منها .

فاســـتند بج بوى الى الخلف ونام . وقفز مستيقظا عنـــدما توقفت العربة سمع ويل يخرج من العربة . وأراد أن ينظر من الباب لكنه كان خائفا . وفى لحظة واحدة عاوده الخوف الرهيب الذى عرفه فى الحفرة .

فلنفرض انهم بحثوا ووجدوه ؟ جذب باب العربة .

واطلت قبعة ويل مع اناء .

— خذ سريعا .

فأمسك به بج بوى ونثر المـــاء على وجهه . فابتلت العربة وشرب . وجرت أصابع من البرد القارس فى معدته الساخنة . وأصابه آلم قاس جعله ينحنى . وبدت ضرباته منتهية الى حلقه محكمة . وبعد قليل هدأ الالم . وجلس متنفسا بهدوء مالت العربة

عن الطريق . وغمضت عيناه . وتحولت اشعة ضوء النهار الى ذهبية براقة . وارتفعت الشمس .

وأنطلقت العربة عبر أميال الطريق المرصوف بالاسفلت .. أنطلقت الى الشمال . تطوح به فى جوانبها ، واهتزت فطيرة الذرة فى صدره ، وتراقصت معه الشجيرات الصغيرة وذرات التراب فى اشعة الشمس الذهبية البراقة ..

ومال على جانبه ونام ..



عند ضفة النهر

- ١ -

كانت كل خطوة يخطوها تجعل المنزل القـــديم يميد كأنما كانت الأرض تحت اساس المنزل ، غارقة فى الوحل . وتعجـــب كيف استمرت الاعمدة التى تحمل المنـــزل صامدة امام المـــاء . لكن ما بعث فى نفسه القلـــق حقـــا هى درجات الســلم . فانهـــا لابد ستنهار فى اية لحظة . وعندئذ ستنمحى . وقد انفـــق كـــل ذلك الصباح محاولا حمايتها بحبل معقودة ،لكنـــه لم تكن لديـــه عزيمـــة صادقة . فسار الى النافذة والملاءات نصف التالفـــة ممزقة . أملا أن يغـــادر الصداع الغبى رأسه ، حـــدث نفسه : كنت محموما طوال اليوم . أشعر . كأنما اصبت بزكام .

ومن نافذة زجاجيـــة قذرة شاهد ماء أصفر يتدفـــق حـــول ركن المخزن . وملأ اذنيـــه صفير حـــاد .. وفى الصـــباح كان المـــاء عميـــق البريق وبعد الظهر كان مشعا باصفرار . وعند المساء كان داكنـــا كسطح القـــار الراكد . كان عمقه ســـتة أقـــدام وظل يرتفـــع فارتفع قدمين هذا اليوم . واستقر عنـــد مرتفع ضئيل من الرغاء الأبيض حيث يضرب التيار الاصفر جانبا من المخزن ويرتد بعنف . منذ ثلاثة أيـــام وهـــو يراقب هـــذا المرتفـــع الضئيل من الرغاء الابيض . وعنـــدما قصر المـــد امل فى أن يرى الارض فى الحل . لكن عنـــدما طـــال عرف أن التيـــار كان يتدفق قويا للمرة الثانية . كانت كل بذور نبـــاتات الربيـــع رطبة الآن .لقد أصابها العفن . وفكر فى يأس . فى الصباح قبل ان يرى بقرته الوحيـــدة « سالى » تجـــار وتهز راسها . وتدور بعينيها وتغـــوص فى عمـــق ثلاثة اقـــدام فى الميـــاه عابرة نحو التـــلال . وعندئذ كانت الاخت « جيف » قد قالت بأن الرجـــل الذى لا يتبع البقـــرة انما يكون غبيا . حسبنا انه لم يشر لهـــا

الى هــذا الطريــق .. كان هذا منزله . لكن عليــه الآن أن يغــادره . لأن المــاء كان يرتفــع وليست هنــاك أى اخبــار تشير الى متى وأين سيتوقف عن التدفــق ..

وبعد مضى يومين أخبر « بوب » بأن يقــود البقرة العجــوز الى مراعى « بويســان » ويبيعها أو يستبدلها بقــارب ، أى نوع من القوارب . والآن عاد بوب لأنه اذا كان عليــه أن يقــوم بعمل ما فسيعمل عملا آخــر وعنــدما تمطر فالميــاه تنفذ لكن يا الهى لو لم يتحطم هذا الجسر .. فقط لو لم يتحطم هــذا الجسر القــديم ..

وتحول بعيــدا عن النافذة .. ماسحا جبهته ، ان جرعة جيدة من الكنين كفيلة بأن تقتل هذه الحمى ، لكنــه ليس لديه كنين . الرحمة . يا الهى !

والأسوأ من كل هذا ، هنــاك كانت لولو ملقــاة على ظهرها طوال هذه الايام الاربعة . تعانى مخــاضا يأبى أن يستسلم . انفرجت شفتاه فى حزن صامت . ولم يبد عادلا أن رجــلا واحدا قد يضرب بشدة وعلى جوانب عديدة فى آن واحــد . ووازن ثقل جسمه من قدمه اليمنى الى قدمه اليسرى ، منصتا للأصوات الآتية من الحجرة الامامية مفكرا كيف حــال لولو اذا لم تضــع هذا الطفل ، سأحملها فى الحال بعيدا عن هنا . الى أى مكان .

استند الى جــدار مظلم . ما الذى على وجه الأرض يستبقى بوب طويلا ؟ حسننا ــ والشىء بالشىء يذكــر ــ هــذا مرده لحماقته . كانت أمامه فرصة ليفر بعيــدا لكنــه تصرف كأى غبى ولم يستغل هذه الفرصة . فقــد أشار بأن المــاء سيتدفــق هابطا فى الحــال . وقــد فكر بأنه لو بقى لكان الأول فى العودة

الى الحقول وعاش حياة الربيع . لكن الآن حتى لو ذهبت البقرة . نعم . لكان قد رحل عندما تمنحه الحكومة القارب . وهو الآن ليس معه اى نقود لشراء قارب . وقال « بوب » أنه لا يستطيع حتى أن يقترب من الصليب الأحمر .

فالتقط وعاء من جوار الجدار والتقط ماء موحلا من دلو . كان طعمه ثقيلا وأسوأ من أن يستطيع تجرعه . فأعاد تعليق الوعاء وطوح بالماء فى الركن . وأراح رأسه منصتا وبدا كأنه سمع صوت طلقة رصاص . ثم حدثت مره ثانية . ففكر بأنه لابد حدث شيء ما فى البلدة وعبر الماء الاصفر سمع طلقة أخرى . رفيعة حادة آتية من بعيد . لابد أن هناك شغبا . لابد أن هناك عراكا فى مكان ما . لقد سمع بأن جماعات البيض كانت تهدد بأن يعاقبوا جميع الزنوج الذين يضعون أيديهم على الرمال او الحاجيات فى المخازن . وكانوا يتحدثون عن احضار الجنود أيضا . كانوا خائفين من أن تنهب المنازل والمخازن . نعم كان صعبا حتى أن تقول ما يحدث فى البلدة . وفى مثل هذه الاوقات سيطلقون الرصاص على زنجى فيقتلونه ويسقط على الأرض كالكلب . ولا يشعرون بشيء من أجله . هذا الاغتيال لابد أن يعنى اى شيء .. لكن لم يرحل اى كائن من الزنوج المساكين الى الأبد ..

فواجه النافذة مرة ثانية . مفكرا يجب أن أحضر مسدسا من درج مائدة الزينة عندما ادخل حجرة لولو وجذب الستارة الممزقة لأعلى الى أبعد مدى يمكنها الارتفاع اليه فانساب ضوء براق داخل المطبخ . ونظر الى الخارج كان منزله على ارتفاع حوالى اثنى عشر قدما فوق الماء . وكان الماء فى كل مكان ، الماء الاصفر . الماء المتدفق الماء القذر . ولاربعة ايام

وليال طويلة كان هناك يتدفق باندفاع . وفى لحظة كان لديه الاعتقاد بأن هذا الماء كان دائما هناك . وسيظل دائما هناك . نعم فقد بدا أن الماء كان دائما هناك وانه لأول مرة يلاحظ ذلك ، ربما اسقط احدهم هذه المنازل والاشجار وسط هذا الماء !! وشعر بالضيق ومرت به رعشة عصبية فمسح عينيه . يا رب . لقد أصابتنى الحمى . تصدع رأسه وشعر وود لو ينام ويستريح . كان المنظر المقابل لنافذته واضحا على بعد نصف ميل فمعظم المنازل قد مسحت تماما . ومن قريب وقفت اشجار قليلة ملقية ظلالا سوداء على الماء الاصفر . كانت السماء رمادية بنذير المطر . وفجأة ارتعدت كل عضلة فى جسمه كهزة خافتة من الرعد ارتفعت واختفت بعيدا . فهز رأسه . ليس هنا شىء أسوأ من المطر الآن . وسيحمل المطر الغزير الكشك العالى بعيدا كالقوقعة .

— يا أخ مان .

واستدار ورأى الاخت جيف جالسة فى بوابة الصالة .

فسألها :

— كيف حال لولو ؟

فهزت المرأة العجوز رأسها قائلة :

— انها متعبة .

— هل ترجحين انها ستضع فى الحال ؟

— لا نستطيع القول بذلك يا أخ مان . فربما استطاعت وربما لم تستطع . ان لديها متسعا من الوقت للمخاض .

— الا نستطيع أن نفعل شيئا من اجلها ؟

— الان . علينا أن ننتظر فحسب . هذا كل ما فى الأمر . يا الهى اننى أعرف انها لن تنال هذا الطفل بدون طبيب . فخذاها صغيرتان جدا .

— ليس هناك اى طريق لاحضار طبيب الآن .

— لكن عليك أن تفعل شيئا يا اخ مان .

— لا أعرف ماذا افعل .

وسعل مكملا :

— اين بيوى ؟

— انه نائم فى حجرة لولو .

فاقتربت منه حتى صارت لصقه ونظرت بحدة فى وجهه .

— يا أخ مان لا يوجد اى شىء يؤكل فى المنزل . عليك أن تعمل شيئا .

فتحول عنها الى النافذة . وقال :

— لقد أرسلت بوب مع البقرة ليحاول احضار اى قارب .

سعلت . فابتلع لعابه بمشقة . سامعا همس خطوات حذائها الناعمة . بينما هى تبتعد فى الصالة . لا قوارب ولا نقود . ولا طبيب ولم يحضر بوب حتى الآن . لن تستطيع لولو الانتظار اكثر من ذلك . لو أتى بوب بقارب لوضع لولو فيه وجدف بها الى مستشفى الصليب الأحمر ، فتنتهى المتاعب

سيدخلها البيض المستشفى . سيكون عليهم ان يدخلوها . فلن يتركوا امرأة تموت لأنها كانت سوداء لن يدعوا طفلا يقتل امرأة . لن يفعلوا وصار متلهفا . ينظر خارج النافذة منصتا . واعتقد انه سمع طلقة اخرى . لكن الصوت الوحيد كان صوت الماء المتدفق كان الماء يسود . وفى الفجوات المفتوحة كان الماء اصفر موحلا . لكن بالقرب من المنازل والاشجار كان لونه هو اللون الداكن . وفكر بأن الليل قد هبط ثم جاء صوت الطلقات رفيعا حادا بعيدا . واحد .. اثنين .. ثلاثة ..

— يا أخ مان . انه بوب .

فأسرع الى الباب الأمامى يجرى بثقل على عجلات حذائه الضخم فرأى بوب واقفا بعيدا اسفل الدرجات الطويلة بالقرب من الماء منحنيا ممسكا بحبل وبجانبه قارب تجديف أبيض يرتجف فى التيار .

— كيف عدت يا بوب ؟

فنظر بوب لأعلى واضاءت وجهه ابتسامة . وقال مشيرا الى القارب الابيض :

— انظر ؟

فاهتز كل جسد مان . شكرا يا الهى . لقد احضرنا قاربا . والآن نستطيع أن نحملها بعيدا ..

— من أين احضرته ؟

فلم يجب بوب . واحكم ربط الحبل وارتقى الدرجات .

قال بوب :

ان روحى متعبـــة .

وسارا فى الصالة . فراقب مان بوب وهـــو يخـــرج منـــديلا من جيبه ويمسح وجهه الأسود . دخـــل بيوى وهو يمسح عينيه وينظر الى بوب .

ــ هل احضرت قاربا . يا عم بوب ؟

قـــال مان :

ــ ابق هادئا يا بيوى .

وجاءت الاختان جيف وجرينى ووقفتا بجوار بيوى وقلبتا النظر بين بوب ومان وانتزع بوب منديله وقد تحين الفرصة وضـــحك قليـــلا وقال مرة ثانية :

يا الهى ان روحى متعبة !

فسأل مان :

ــ من اشترى البقرة ؟

ــ اشتراها العجوز بويمان لكنه لم يرد أن ينقدنى كثيرا .

وتوقف بوب مفكرا وانتزع حفنـــة اوراق مالية من فئة الدولار قـــائلا :

ــ لقد أعطانى خمسين دولارا .

ــ هل هذا كل ما اعطاك ؟

ــ كل مليم سيساعدنى يا الهى . وهذا الابيض القاسى لا يريد أن يعطينى يا الهى لقـــد ربح هذا البويمان اضعافا من صـــفقة

البقرة . انى أقسم لك يا الهى بأننى لم ارغب ابــدا فى ان أسرق أى انسان طوال حياتى ..

قالت جرينى :

ـــ الا تفكر فى شىء يا بوب . لقــد عانينا المزيد من المتـــــا الآن دون أن تفكر انت فى شىء .

فنظر بوب اليها .

وصاح بيوى وهو يجرى من الباب الأمامى :

ـــ انه قــارب .

وظل مان واقفــا ممسكا بالنقود بأصابعه وسأل :

ـــ لكن كيف أحضرت هذا القارب يا بوب ؟

فسأل بيوى :

ـــ هل هذا قاربنا ؟

قالت جرينى :

ـــ اسكت يا بيوى .

وقــال بوب :

ـــ لا تقلق . ستنال الفرصة وتركب فى هذا القارب يا بيوى .

وضحك وأمسك بـــ « بيوى » من ذراعيه ونظر حــوله . وسقط جالسا على كرسى وقال :

ـــ عندما أغادر ارض بويمان فسأذهب الى البلدة فى قارب يدار بالكهرباء مع الأخ هــول . لقــد ذهبت فى كــل مكان باحثــا

لأعلى ولأسفل عن قارب . فالبعض يريد أربعين دولارا وآخرون يريدون خمسين . وقابلت رجلا طلب مائة . ولا أستطيع أن اشترى قاربا الآن هنا ، اذا سأتحين الفرصة وأسرق قاربا عندما يكون الجميع غافلين !

سأل مان

— هل سرقت القارب ؟

— لم نكن لنرى أمامنا قاربا اذا لم احصل عليه .

قالت جرينى :

— يا ابنى انك غبى حتى تسرق قوارب البيض فى أوقات كهذه .

فمسح بوب ساقه وضحك قائلا :

— وهو كذلك يا ماما . سأعيد القارب الى أصحابه . رأيك فى ذلك أتريديننى أن أعيده ؟

فاستدارت جرينى بعيدا وقالت :

— لن أركب فيه .

قال بوب :

— حسنا ابقى هنا واغرقى فى المياه .

وسعل مان قائلا :

— بوب كم وددت لو لم تسرقه .

فقـــال بوب بحركة يائسة من يده :

ـــ أوه عم تبحثون ؟ أتخافون أن يراكــم احـــد فى داخله . ستذهبون جميعا الى الشـــلال . واذا لم اسرق هـــذا القـــارب لكان عليـــكم البقـــاء هنا حتى يحملكم المـــاء ويزيلكم ..

ودفع بيوى فى ركبته ونظر لأعلى وعليه سيماء الخطورة .

وقـــال :

ـــ كيف حـــال لولو ؟

قالت الاخت جيف :

ـــ انهـــا متعبـــة .

وجاءت جرينى من بعيد قائلة :

ـــ ما الذى تنوى أن تفعله يا مان ؟ هل تأخـــذ لولو فى القارب الذى سرقه بوب ؟ أنت تعرف أن البيض سيبحثون عن هـــذا القـــارب . لقـــد قتـــل ابن الأخت جيمس فى طوفان كهذا ..

قـــال مان :

ـــ انها لا تستطيع البقـــاء هنا بحالتها هذه .

وســأل بيـــوى :

ـــ هل سأذهب معـــكم يا والدى ؟

فقالت جرينى :

ـــ اسكت يا غبى والا ضربتـــك ؟

وسألت الاخت جيف :

ــ ما الذى تنوى أن تفعله يا أخ مان ؟

فتردد مان . ثم قــال :

ــ سالفها وأحملها . سأجدف بهــا الى مستشفى الصليب الأحمر ..

فوقف بوب قائلا :

ــ مستشفى الصليب الأحمر ؟ أعتقد انك قلت بأننا سنذهب الى التــلال ؟

ــ سنذهب بــ « لولو » الى طبيب .

ــ هل تعنى بأنك ستحملها فى القارب الذى سرقته ؟

ــ ليس هناك شىء آخر نفعله .

فهز بوب رأسه قائلا :

ــ مان .انى واثق بأنك ستقع فى متاعب اذا قدت هذا القارب داخل البلدة . فقــد سرقت هذا القــارب من مكتب البريــد أنه ملك العجوز هيرت فيلد . وانت تعــلم كم يكــره الزنوج . وكل شخص سيعرف قاربه عندما يراه . انه أبيض ولا تستطيع أن تبتعد به عن هنا . واســتمع الى ، انه يوجــد الآن عراك فى البلدة أيضا . هذه الجسور لا تزال طافية فى الشــمال وهم يستعدون فى أى دقيقــة للرحيل وهم يضــعون كل زنجى فى المداخن . انهم يدفعونهم كالعبيد وسمعت انهم قتلوا اثنين اوثلاثة عندما حاولوا الفرار ، واذا حــدث أى شىء لك فلن نستطيع العودة الى هنــا لأن قنطرتين ازيلتــا هذا الصــباح ولم تعــد هناك قطارات تسير . ان الأمور سيئة للغاية فى البلدة . فالحمى

تغمر البيض.والجميع يتدفقون على مستشفى الصليب الاحمر . وايما وجهت نظرى لم أر الا الرجال البيض يحملون بنادقهم على أكتافهم ، كانوا ينتظرون الجنود عندما تركتهم . وانت تعلم ماذا يعنى ذلك !!

ومات صوب بوب بعيدا وجاء الى سمعهم صوت لولو تئن فى الحجرة الامامية .

سألت الأخت جيف :

— هل ستذهب وتأخذها معك يا أخ مان ؟

فقال مان :

— ليس هناك اى شىء غير ذلك لنفعله . سأحاول ان اعيد القارب الى البيض بعد ما أحمل لولو الى المستشفى . لكنى كنت أتمنى لو لم تسرق هذا القارب يا بوب الا اننا سنستعمله الآن . فلا أحب أن اصطدم بالبيض ...

وقالت جرينى :

— لن أذهب فى هذا القارب . لن أذهب خارجا عن هنا لالقى حتفى اليوم .

فقال مان :

— أبقى هنا اذن . فسآخذ لولو الى المستشفى .

فصاحت جرينى وذهبت الى الحجرة الامامية فتبعتها الاخت جيف .

وسأل بيوى :

ـ أبى هل سأذهب معكم ؟

ـ نعم . احضر ملابسك . وقل لجرينى ان تعد ملابسها اذا لم تكن تريد البقاء هنا لأنى مستعد للرحيل .

كان بوب متعبا فمط شفتيه ونظر الى الأرض قائلا :

ـ لقد وقعت فى عمل صعب بتجديفك بالقارب من هنا الى المستشفى . ستجدف ضد التيار فى كل بوصة تخطوها وبقارب مزدحم . عمل لا يناسب الا الشيطان والمياه صارت بعمق اثنى عشر قدما ومازالت تتدفق بقوة وبخداع .

فسعل مان قائلا :

ـ ليس امامنا شىء آخر لنفعله .

ـ من الأفضل ان تأخذ شيئا معك . لأن كل شخص يلعب فى البلدة .

فقال مان :

ـ يجب أن احمل بندقيتى سأظل فى أسف لانك سرقت قارب البيض ..

وطفى صوت عبر الماء كصدى آت من بعيد .

ـ يا أخ مان . هل انت هناك . يا اخ مان .

فقال بوب :

ـ هذا الدرمورى .

فتح مان الباب . كانت كتلة سوداء واقفة خارجه . كان رجل طويل واقفا فى قارب تجديف ويده ممسكة بحبل على الدرجات .

ـــ أهذا أنت يا أخ مان ؟

ـــ كيف حالك يا الدر ؟

ـــ هل انتم جميعا بخير ؟

ـــ نحن على وشك الرحيل . الا تريد أن تصعد ؟

ـــ لدقيقة واحـــدة .

صعد مورى الدرجات ووقف فى البوابة ماسحا يديه .

ـــ كيف حال الأخت لولو ؟

ـــ نعتزم حملها الى الصليب الاحمر .

ـــ هل تعنى بأنها لم تنجب هذا الطفل بعد ؟

ـــ انها أضعف من أن تلده بدون طبيب يا الدر .

الرحمة يا الهى . هل يمكننى رؤيتها ؟

فأفسح له مان الطريـــق وقاده الى حجـــرة لولو حيث كانت (لمبة) تدخن ملقيـــة ظلالا قاتمة على الجـــدران . ووقف بوب وبيوى والأخت جيف وجرينى ومورى ومان حول السرير . كانت لولو راقدة عند طرف ملاءة السرير متدثرة فى بطانية ثقيلة . كان شعرها مهوشا ووجهها مبللا وتنفسها سريعا .

سأل مورى :

ـــ كيف تشعرين يا أخت لولو ؟

فنظرت اليه لولو بضـــعف . كانت امرأة صـــغيرة ذات عينين واسعتين براقتين . كانت ذراعاها مثبتتين فى جانبها ويداهـــا أمسكتا بالبطانية .

سأل موری ثانية :

ـ كيف تشعرين ؟

قالت جريني :

ـ انهـا ضعيفة كليـة .

فتحول موری الى مان قائلا :

ـ استمع الى جيـدا ، من الافضـل أن تكون حريصا وتأخذ هذا القـارب الى البـلدة . فالبيض يثيرون المعـارك وهذه التيـارات قوية .

فتحول مان من السرير الى الدولاب وأخرج مسدسه من آخر الدرج ودفعـه منزلقـا فى جيبـه .

فسأله بيـوى :

ـ والدى لما هذا ؟

فقـال مان :

ـ اسكت .

قال موری :

ـ يا اخواتى ويا أخواتى هيا نركع ونصلى .

فركعوا جميعا على ركبهم واتت لولو وومض شريط أزرق من الضوء أضاء الحجرة ثم جـاء رعد قوى بدا كأنما يهز الارض فلم يتكلم أحـد حتى انتهت آخر هزة .

ـ « يا الهى يا رب يا خالق الاقـدار لقـد عدنا أمامك مرة ثانية . ضعفاء كما ترى طالبين العفو والرحمة استمع الينـا

اليوم يا الهى استمع الينا اليوم ، اذا لم تكن قد سمعتنا من قبل . اننا فى حاجة اليك الآن لتساعدنا وترشدنا وتنقذ هذه الجماعات المسكينة يا الهى أرع الذين خلقتهم وسويتهم على صورتك . افتح قلوبهم وساعدهم فى ان يؤمنوا بكلمتك . وساعد هذه المرأة المسكينة يا الهى . سهل عملها . لانك قلت يا الهى ان عليها أن تنجب أطفالها فى الم .. » .

أغمض مان عينيه وأراح يديه على فخذيه وعاد الصداع البطىء الغبى الى رأسه وود من كل قلبه لو يسرع الدرموري وينهى الصلاة ، لأنه يريد أن يكون فى ذلك القارب انه لن يشعر بأمان طالما هو جالس فى هذا القارب . كان بوب مخطئا جدا عندما سرقه . لكن لم يعد هناك حل الآن . فالسرعة تكمن فى هذا القارب . كما أعتقد وأخذ يردد :

اذا حضر البيض الى هنا واستعادوه لعدنا كما كنا من قبل . نعم يجب أن أعيد هذا القارب الى البيض بعد ما أحمل فيه لولو الى المستشفى آه نعم فربما أخذ الدر قاربى واتخذ طريقه الى التلال ؟ يا الهى نعم .. سيكون طريقا طيبا للهرب من البيض سأسأله ..

واستطرد يقول ... يا الهى ، لقد قلت نادنى بأسمى وستجيب لقد قلت أبحث تجد . واليوم اننا نناديك ونبحث عنك . يا الهى لقد قلت أعتقد فى دم أبنك ونحن الآن نعتقد وننتظرك لتنقذنا . وهذه القلوب الغليظة التى تكمن فى أجساد البيض هناك فى البلدة . اجعل قلوبهم رقيقة لأنك قلت يا الهى فقط نظفوا قلوبكم لكى تأتيكم الرحمة ...

مسح مان عينيه وأزال ما علق بحنجرته والآن انه يفكر بأنه لا فائدة من أن يأخذ الدر قاربى . فسيود معرفة كيف جاء وسيكون

على أن أخبره بأن بوب قد سرقه ولن يقدم الدر على مســـاعدة أي شـــخص يعتقد انه خالف الصـــواب . لكن ربما اذا اخبرت العجوز هيرت فيلد عن السر في سرقة بوب لقاربه ربما لم يأخذني معه ؟ نعم يجب أن يكون مسرورا لأني سأعيد له قاربه . نعم . وربما أستطاع الدر ان يأخذ معه الأخت جيف وبوب الى التــلال في قاربه ؟ فهذا قد يساعد قليلا ..

« .... وانقذ أرواحنا من أجل المبشرين . كل الرجال » .

وقف موري وأخذ يغني وردد الآخرون في رقة .

« اني ذاهب لأضع سيفي ودرعي »

« هنـــاك عند ضـــفة النهر »

« هنـــاك عند ضـــفة النهر »

« هنـــاك عند ضـــفة النهر »

« اني ذاهب لأضع سيفي ودرعي »

« هنـــاك عند ضـــفة النهر »

« اني ذاهب ولم أفكر في الحرب بعد اليوم »

« اني ذاهب ولن افكر في الحرب بعد اليوم »

« اني ذاهب ولن افكر في الحرب بعد اليوم »

« اني ذاهب ولن افكر في الحرب بعد اليوم »

« اني ذاهب ولن أفكر في الحرب بعد اليوم »

« اني ذاهب ولن افكر في الحرب بعد اليوم »

مسح موري فمه بظهر يده وحرك قبعته قائلا :

ـ حسنا يا اخواتي واخواني . اني ذاهب الى التــلال .

فان أهلى هناك على استعداد . لقد حملت القارب فى الخـــارج لكن هناك حجرة لاثنين أو ثلاثة أو أكثر اذا أرادها أى شـخص .

فسأله مان :

— هل تستطيع أن تأخذ معك الأخت جيف وبوب ؟

— بالتأكيـــد .

كانت جرينى تصيح وارتدت معطفها ودلفت الى الصـــالة . وجاء بوب من المطبخ بربطة . وحمل مان لولو بين ذراعيه وامسك مورى الباب له . وتبعهم بيوى ممسكا بدب صغير . واستعدت الأخت جيف . وتوقفوا جميعا عند البوابة الأمامية .

قال مان :

— بوب من الأفضل أن تهبط وتعد هذا القارب .

وقال بيوى :

— دعه يذهب معك .

وقالت جرينى ممسكة بذراعه :

— تعال أنت هنا .

جذب بوب القارب لصق الدرجات وهبط مان الدرجات ببطء .

قال مورى صائحا :

— لا تعقدها يا أخ مان .

خطا مان فى القارب وأراح لولو فى المقعد الخلفى . وامسكها بوب من كتفيهـــا .

ونادى مان جرينى وبيوى .

ـ تعالوا جميعا .

فجاءوا يتقدمون بحذر . وعاونهم مورى على الهبوط .

وقـــال :

ـ سأراكم جميعا عند التلال .

وجلس بوب والأخت جيف فى قارب مورى . كان مورى أول من يدفع القارب .

ـ أنا ذاهب يا جماعة . وداعا وبارككم الله .

ـ وداعـــا .

أمســـك مان بالمجداغين وبلل قبضتيهما ليمنعهما من الانزلاق وغمسهما فى المـــاء وجذبهما واندفع القارب متقدما عبر الفيضان المظلم .

ـ ٢ ـ

كانت الميـــاه تتدفق من كل جانب حول مان . عفنـــة ومفرقة سوداء كمحيط من الزيت المغلى . وفوق رأسه كانت الســـماء مخططة بضوء رمادى باهت . كان الهواء ساخنا يهب فى ضربات متتالية . وكان كل شىء حوله محاطا بجدران من الظلام وكان يعلم أن هذه المنازل والأشـــجار مختبئة خلف هذه الجدران ويعلـــم أن عليه أن يلتزم الحذر . وما أن جدف حتى ابتدأ يشـــعر بقوة التيار تضرب فى يساره . ومع كل ضربة من المجدافين كان يزن القارب من خلفه . ومن رقبته . ومن كتفيه وغمره الخوف قبـــل اى شىء ، يا الهى . لو لم يتحطم هذا الجسر واهتزت شـــجرة كالشبح وهمست أوراقها ، وتذكر انها تقف عند رأس الطريق . وتحرك عقله بصورة الشجرة وتخيل صورة لحقل ذرة فى ضوء

الشمس . كان عليـــه ان يتحول هنا فى زواية حادة ويتجه الى الطريق الحديدى وأراح مجدافا واستدار بفمل تجديفه بالآخر . ضرب القارب التيار بعنف وعمق . فمال بالمجدافين مجدفا بقوة شاعرا بأن عليه الآن أن يحارب . وان يحتفظ بالقارب متحركا ، فى طريق مستقيم اذا أراد أن يسير فى خط واحد . وان ضربـــات المجدافين ستتوالى فى انتظام . وانحنى رافعا المجدافين واستند الى الخلف غائصـــا بهما ثم جذبهما بأصابعه المحكمة شـــاعرا باندفااع القـــارب على سطح المـــاء فى الظلام . يا الهى . لو لم يتحطم هذا الجسر القديم .

وابتدأ يبحث عن طاحونة بذر القطن التى تقع على يســـار الطريق الحديدى فحدق محاولا رؤية المداخن السوداء . كانت دائما هنا فى مكان ما . ربما لم أمر بها ؟ واستدار الى اليمين . منحنيا لأسفل . وناظرا . ثم أستدار وأغمض عينيه . وأوقف القارب وسكت المجدافان . وشعر بتعب مفاجىء يغمره .

همست جرينى :

— بيوى . أبق ساكنا .

أنت لولو . فشـعر مان بألم عميق . وبسرعة أستعاد فى عقله المكان الذى ظن انه جـــاءه . وبحث عما قد يكون على الأرض وعن العلامات التى تميز المـــاء . ونظر مرة ثانية الى اليمـــين والى اليسار وخلف كتفه . ثم نظر لأعلى مباشرة فبدت مدخنتان طويلتان على بعد قدم من عينيه . ففكر قائلا :

لم أكن أنظر لأعلى بدرجة كافية . فعلى اليسار لابد أن توجد المنازل . وعلى استقامته يوجد طريق بيك فسيكون هذا أقصر طريق .

سأل بيوى :

ـــ والدى هل وصلنا هناك ؟

ـــ أسكت .

وجدف من المداخن ، جدف حتى المنازل المتخيلة فى ذهنه . متوقعا أن يرى شيئا خارجا من الظلام يماثل تصـــورا داخليا . ومع كل ست أو سبع ضربات كان يتلفت حوله لينظر . وصـــار التيار عنيفا والظلام كثيفا . وتخيل للحظة ان القارب لا يسير . فثبت كعبيـــه وانحنى لآخر ما يمكنه ودفع المجدافين حتى آخـــر ما تصـــل اليه ذراعاه من قوة . وصار ظهره يؤلمه . وانفجرت أصابعه فاستراح . لحظة وغمسها فى المـــاء البارد الأسود . فساعده هذا فى تخفيف الالم . لكن لم يكن هنـــاك سوى الظلام فوقه حينما تلفت لينظر الى المنازل على طريق بيك وبحث فى ماذا كان سار وأخطأ الطريق الذى يقع على جانب الطاحونة وقـــال فى نفسه :

ـــ ربما كنت سائرا فى طريق خاطىء !!

لم يستطع أن يتفوه بذلك . ومع كل ياردة يتقدمها كان التيار يزداد عنفا وفكر فى الجسر . وفجأة مال القـــارب ودار . فكتم تنفسه وحرك المجدافين فاقدا كل اتجاه . هل تحطم هذا الجسر؟ وسمع جريفى تصيح :

ـــ مان .. تكوم القارب .

وطالعت رأسه النجوم المتراقصة فى الظلام : واصطدم القارب بشىء وتعلق بالمجدافـــين فضاع احـــدهما لكن الآخر كان ثابتا لا يتحرك . وكان القارب لا يزال سالـــا فقد كان داخلا فى فجوة

داخل جدار لا يستطيع أن يراه . فأسقط المجدافين ورفع يديه لأعلى إلى الظلام . الخشب . الخشب الرفيع هل هذه منازلهم ؟ وشعر بأنه كان يقود القارب وهو يرجع القهقري وقبض بأصابعه ليمتنع عن الدخول الحــاد فى قطع الخشب . ثم أمسك شــيئا مستديرا باردا أملس رطبا ... كان هــذا خشبا . فتعلق به باحكام وأوقف القارب . وكان يستطيع أن يشعر بقوة التيــار ورعدته تجــرى فى جسمه كما يطلق قلبه دقــات رتيبة ناعمة . وتنفس بصعوبة محاولا أن يكون فى نفسه شــيئا محبوبا حول البرد والبلل . وقطع الخشب الملساء وومض فى عقله عديد من الصور لكن واحدة منها لم توافقه . وتطلع لأعلى مفكرا بأصابعه. ثم رأى فجأة الشــارع بأكمله ، الشمس اللامعة ، العربــات والأثاث كلها معلقة فى وابور ماء ، هذا هو العجوز تومس سنو وكانت هــذه الأمطار تجرى حوله . كان طريق بيك حول المنزل امامه . وفــكر لحظة قبل أن يلتقط المجاديف باحثا عما اذا كان قد أسقطها فى هذا التيار الجارف وسألت جريتى .

— ماذا حدث يا مان ؟

فقــال :

— كل شيء على ما يرام .

أراد أن يهــدئهم . لكنه لم يعرف ماذا يقــول . فبدلا من أن يمسك بالمجدافين ويضع أحدهما فى حائط غير مرئى أطلق لنفســه العنان وترك جســده وأحدث دفعة أرسلت القارب فى منتصف التيار . وصحح وضــعه محاولا أن يبتعد عن المنازل باحثا عن الشــارع وركز عينيه حتى كلتا . لكن كل ما أستطاع أن يراه كانت جدرا مظلمة تهدد من الجانب الآخر . حقا كان هذا كافيا ليراها واضحة . وجدف مانحا كل قوته للمجداف الأيمن ثم للأيسر محاولا أن يظل فى المنتصف .

— أنظر يا أبت .

— ماذا ؟

قالت جريني :

— أسكت يا بيوى .

— هناك أضواء . أنظر ؟

— أين ؟

— أنظر ؟ الى اليمين هناك لأعلى .

نظر مان وذقنه فوق كتفه . كانت تعترضه دائرتان من الضوء الأصفر القاتم . وتحير مان لحظة . فسحب المجدافين وأوقف القارب . وبدت هذه الأضواء عالية جدا لم يستطع أن يتابعها . لكنها كانت على طريق بيك وبدت على بعد مائة ياردة تقريبا . تصور كيف يكون ذلك ؟ ربما وجد بعض المساعدة هناك . فجدف مرة ثانية وظهره للأضواء لكن وميضها الأصفر الناعم كان فى عقله لقد ساعدته هذه الأضواء . وجدف للحظة بدون مجهود فحيث توجد الأضواء يوجد الناس وحيث يوجد الناس توجد النجدة . فخمن منزل من هذا ؟ هل هو من البيض ؟ وأختفى الخوف الأضواء للحظة . لكنه واصل تجديفه وومضت مرة ثانية ووميضها الناعم يساعده على التجديف .

— أبى ، الا تستطيع الذهاب الى هناك ؟

— اسكت يا بيوى .

وبقدر ما أقتربت الأضواء بقدر ما أنخفضت . وجرى فكره بأحداث الماضى فى أوقات اخرى قضاها على طريق بيك وفى ليال اخرى لتخبره من يعيش حيث تومض هذه الأضواء الصفراء . لكن الأضواء ظلت وحدها ولم تخبره أحداث الماضى بشىء .

ربما أستطاعوا الاتصال تليفونيا بالبلدة . وأحضروا قاربا لحمل لولو ؟ ربما أستطاعت أن تنال بعض الراحة هناك . صارت الأضواء قريبة جدا الآن . ولمعت مربعات الضوء الصفراء فى الظلام . كانت هذه نوافذ فحملق فى الأضواء شاعرا بالجوع والعطش والتعب وعاود الصداع راسه ثانية * وصار المجدافان ثقيلين بل اثقل من أن يمسكا وسار القارب تحت النوافذ فنظر وهو يسعل .

سأل بيوى :

— هل هذه هى المستشفى ؟

فسألت جرينى :

— هل سندخل هناك يا مان ؟

فقال مان :

— انى انادى .

وأحاط فمه بيده كالميكروفون صائحا :

— هالو .

وأنتظر ثم نظر الى النوافذ فسمع الماء المغرق يبتلع صوته. فصاح مرة ثانية :

— هالو .

وفتح شباك بضجة كبيرة . واطل وجه أبيض فى الضوء .

— يا الهى هذا رجل ابيض ..

— من هناك ؟

— مان .

ــ مــن ؟

ــ مان . زوجتى مريضة انها فى حالة وضــع . انى أحملها الى المستشفى هل لك أن تتصل بالتليفون هناك ؟

ــ انتظر دقيقــة .

كانت النافذة خالية . وكان هنــاك سكون . فانتظر ووجهه يتجه لأعلى . ورفع المجدافين وأوقف القارب فى التيار السريع. ثم أطل وجه أبيض للمرة الثانية . وانطلق قلم من الضوء فى الظلام وســقطت بقعة من الاصــفرار على القارب فأغمض عينيه . ولم ير شيئا .

ونادى مرة ثانية متحاشيا بريق النور :

ــ هل اتصلت بالتليفون يا سيد ؟

ســكون .

ــ زوجتى مريضة . هل أتصلت بالتليفون .

فجاء صوت بارد غاضب :

ــ أيها الزنجى ، من أين سرقت هذا القارب ؟

وصارت النافذة ممتلئة بوجوه بيضاء . ورأى مان امرأة بيضاء ذات شعر أحمر فارتد الى المجدافين فى خوف . واغمض عينيــه عندما قفز الضوء فوق وجهه .

ــ أين سرقت هذا القارب يا زنجى (هذا قاربى) وســمع مان أصواتا أكثر نعومة .

ــ هذا قاربنا يا ابى . انه أبيض .

ــ هذا قاربنا يا هنرى . هذا قاربنا ..

— ألا تسمعنى يا زنجى . أعد هذا القارب الى هنا .

وأنطلقت رصاصتان من مسدس . فصرخت جرينى ومسح مان المجدافين وهو مغمض العينين ومال القارب ، يا الهى . هذا هيرت فيلد وقد أحضر بندقيته وشعر مان بالماء يطرحه بعيدا .

— يا زنجى ألم تأخذ هذا القارب سأقتلك .

وسمع طلقتين آخريين : ومال القارب على الخشب محدثا صوتا عاليا والقى على ظهره فيظر لأعلى محاولا أن يحتفظ بالنوافذ الصفراء فى مستوى نظره وخيل اليه — للحظة — بأن النوافذ مظلمة . لكن النور اللامع هو الذى ذهب فحسب . وأمسك تنفسه وشعر بالقارب يضرب فى حائط مهتزا مع التيار . ثم ظل ساكنا . وبدا كأنه وقع بين حائطين ومس جدارا داخليا وحاول أن يقيمه واهتز القارب وغمرته موجة من الماء البارد وصار القارب مقوسا مرة ثانية ونظر الى النوافذ وانفجر مربع ثالث من الضوء . وراقب رجلا ابيض بوجه أحمر قاس جاء خارجا من ممر طابق أرضى ووقف ظاهرا فى البوابة نصف المضاءة . كان الرجل مرتديا قميصا أبيض وكان يلعب بالاطار الاصفر المحيط بالماء الاسود . وفى يده اليمنى كانت تلمع بندقية. كان الرجل يسير ببطء . فى الدور الارضى خارج درجات السلم وتوقف محدقا فى حافة الماء . ودوى صوت جمهورى :

— يا زنجى أحضر هذا القارب هنا يا زنجى .

ظل مان ساكنا جامدا . وحدق فى البندقية التى بيد الرجل الابيض واندفعت غصة باردة خارجة من معدته الى حلقه

ورأى دائرة صفراء تدور حـــول جانب من المنزل . وتوقف الرجل الابيض وصوب ثم أطلق رصاصته :

— انه يعتقد أننى انتهيت يا الهى .

ثم انفغر فاه وجفت شفتاه عندما تنفس .

— يا ابن الكلبة . احضر قاربى الى هنا .

همست جرينى .

— مان .

بحث مان فى جيبه عن بندقيته وأمسكها مبتعدا . وارتعدت يده . وراقب الدائرة الصـــفراء تقفز فوق المـــاء المظلم علـــى بعد خمسين قدما منـــه وأخذت تتوقف للحظات فحسب . باحثة فى كل بوصة من المـــاء .

وعندما صارت الصف بمان رفع بندقيتـــه . ودارت الدائرة ذهابا وأيابا . واختنق حلقه وصمت . ثم ارتفعت الدائرة عنـــه بضعة أقدام . والتقى الضوء الخاطف به ومر مخلفا الظـــــلام وكانت هناك صرخة . القى مان بالبندقية فى قـــاع القـــارب وأمسك بالمجدافين والقى بكل ثقله عليهما مثبتا اياها فى الجدران وجدف عكس التيـــار .

— هنرى . هنرى .

جدف مان وسمع جرينى تصرخ وشعر بالضعف من أثر الخوف، كانت لديه رغبة لا شعورية فى التوقف وشعر بالضياع لانه اطلق الرصاص على رجل أبيض ، وشعر بأنه لا فائدة من تجديفـــه لمسافة أبعد . لكن التيار حارب القارب فحاربه هو بالمجدافين .

— هنرى . هنرى .

كان هذا صـــوت سيدة تتوسل ثم صياح صوت أقل سنا حـــاد شرس وعنيد .

— قتله الزنجى لقد قتل الزنجى أبى !

واصل مان تجديفه فى الظلام على وجه المـــاء الاسود ولم يعد يستطيع أن يرى الأضواء الآن . كان على الجانب الآخـــر من المبنى . لكن الصرخات جاءت واضحة :

— قف أيها الزنجى . قف . لقـــد قتلت أبى أيهـــا الخـــائن أيهـــا الزنجى .

— هنرى . هنرى .

وسمع مان جرينى وبيوى يصيحان . لكن بكاءهما جاء اليـــه من طريق بعيد . كانما كان بعيـــدا جـــدا مثل الاصوات التى كانت تصرخ . كان من الخطأ بالنســـبة اليه أن يستريح كلمـــا مال على المجداف الايسر . ثم على الايمن . موازنا القـــارب فى منتصف جدران الظلام . ثم صار مرة واحـــدة باردا بلا ثورة. وشعر بأن قيـــادته للقارب الى المستشفى الآن لا تعنى شيئا . وصرخ صوتان فى اذنيه :

— قف يا زنجى . قف يا زنجى . هنرى هنرى .

ودوى صداهما حتى بعد أن صارا بعيدا عن مصدرهما .

ثم فجـــأة صار التجـــديف أكثر سهولة . وقد عاد الآن الى الفضاء مرة ثانية بعيدا عن المنـــازل ولم يصبه اى قلـــق الآن لبعده عن الاتجاهات لأنه علم بالضبط أين هو فلم يبق الا نصف ميل ويعبر مرعى باريت ويطرق الشوارع وربما الاضواء.وواصل التجديف سامعا صياح جرينى وهو يرى هيرت فيلد قادما علـــى الدرجات الضيقة بالنور الخاطف والبندقية ، فقال فى نفسه .

ـــ لكنه أطلق على الرصاص قبل أن أطلقه عليه . وطافت به فكرة أخرى جعلته يلقى بالمجدافين .

ـــ فلنفترض أن عشيرة هيرت فيلد اتصلت تليفونيا بالبلدة واخبروهم بأننى أطلقت عليه الرصاص ؟

ونظر حوله يائسا فى الظلام :

ـــ يا الهى . لا أريد أن اقحم عشيرتى فى الموت .

واهتز القارب على جانبيه بفعل تموجات التيار .

كانت جرينى تهمس :

ـــ لولـــو

فسأل مان :

ـــ كيف حال لولو ؟

فسعلت جرينى قائلة :

ـــ انها نائمة كما أعتقد .

والآن انى ماض للأمام .

ـــ ولكن ما العمل الآن وهو لا يستطيع أن يستدير للخلف نحو التلال . ولا مع لولو فى هذا القـــارب ، ولا مع لولو فى حالتهـــا السابقة . فصر على أسنانه وأمسك بالمجدافين وأخذ يعمـــل بهما ، وعاليا فوق رأســه زارت طائرة فنظر لأعلى ورأى مثلثا من الأنوار الحمراء والخضراء تلوح فى الظلام . كانت أصابعه ساخنة وفاقدة الاحساس . كأنما كل احساس يديه قد تحـــول الى النـــار . لكن جسده كان باردا وكانت النســـمات الخفيفـــة تجفف عرقه .

تكلمت جريني قائلة :

ـ هناك أضواء البلدة . يا مان .

فالتفت نحوها . وقد تأكد تماما أن الأنوار هنـــاك تتلألأ فى وميض خاطف . وأخذت الظلمة تدفن فى الاشعة الصـفراء . الله وحده هو الذى يعـلم ماذا يحـدث عند دخوله البلدة ... لو لم يذهب بـ « لولو » الى المستشفى .

ولو أمكنه فقط أن يخرج جريني وبيوى سالمين من هذا المـاء. ومن ثم تكون أمامه فرصة للابتعاد . وكان يعلم أن هذا ما يريدونه أن يفعله . فمسح المجدافين وتذكر سماعه أقاصيص عن عائلات قد قتلت بأكملها لأن بعض الاقارب ارتكبوا خطأ ما .

وأضاء شعاع سريع المـكان المقفر والميـاه المرتعدة ثم دوى الرعد ، عاليـا وطويلا كصوت جبـل ينهار ، أخـذت السماء تمطر مطـرا غزيرا مفاجئا . وسال المـاء على ظهر رقبتـه وشعر بـ « جريني » تتحرك.كانت تغطى لولو بمعطفها فجدف بمزيد من السرعة ، محدقا فى المطر قاصدا الوصول بسلام قبـل أن يمتلىء القارب بمزيد من المـاء . فبعد خمسين ياردة أخرى أو ما يقـرب من ذلك سيصبح وسـط المنـازل . نعم . اذا سألونى هنا عن هيرت فيلد فسأخبرهم بالحقيقـة . لكنـه كان يعلم بأنه لا يريد أن يفعل ذلك . فهو يعرف ان ذلك لن يساعده لكن ما الذى أمامه أن يفعله غير هذا ؟ نعـم . ان عليـه أن يقـول الصدق ويثق فى الله لا أحـد سوى الله يمكنه رؤيتـه وهو يفعل هذا ثم حدث نفسـه :

ـ لم يكن بوب سيسرق هذا القارب .. لكنى فيه الآن ..

وسعل . مجدفا وهذا المطر . هذا الجسم المتبقى سينهار بفعل هذا المطر .

ـــ يا الهى . امنحنا الرحمة .

وخفض ذقنه وصمم على الا يفكر . أن عليـــه أن يثق بالله ويظل ماضيا فى طريقه هذا كل شىء . كانت قدماه وملابسه مبتلة. وزادت حدة التيار مما جعل القـــارب كأنه لا يتحرك . نعم ـــ فكر ـــ هذا شارع روز . وأرسى القارب بين صفين من المنازل.

ـــ قف . من يسير هناك ؟

فجذب المجدافين . وقابلته كتلة من الضوء المنطلق من شرفة بالطابق الثانى جعلته لا يرى . واستند جنديان أبيضان فى بزتين من قماش « الكاكى » على الســـور . كان وجهـــاهما كمربعين احمرين وكان يمكنه أن يرى لمعـــان الصلب فى طرفى بندقيتيهما . حسنا سيعلم الآن . ربما لم يسمعا بعد عن هيرت فيلد .

ـــ الى أين أنت ذاهب يا زنجى ؟

ـــ انى آخذ زوجتى الى المستشفى يا سيدى انهـــا فى حالة وضع يا سيدى .

ـــ ماذا ؟

ـــ زوجتى فى حالة وضع يا سيدى . انى آخذها الى الصليب الأحمر .

ـــ اصعد الى درجات السلم .

ـــ حاضر يا سيدى .

فحول القارب وتوجه نحو الدرجات التى تؤدى الى المـــاء .

وزمجر الجنديان عليه قائلين .

ـــ ما اسمك ؟

ـــ مان . يا سيدى .

— هل أحضرت تصريحا ؟

— لا يا سيدى .

— الا تعرف انك ترتكب عملا من أعمال العنف ؟

— لا يا سيدى .

— ماذا كانت هذه الطلقات النارية هناك منذ برهة ؟

— لا اعلم يا سيدى .

فقال أحد الجنديين :

— فتشه . يا ماك .

— وهو كذلك . قف يا زنجى .

وجس أحد الجنديين ساق مان .

ثم قال مان فى نفسه :

— يا الهى اتعشم الا يرى هذا المسدس الذى فى القارب . .

— انه على ما يرام .

— ما أسمك الذى ذكرته ؟

— مان يا سيدى .

— من أين انت قادم ؟

— من اقصى الجنوب يا سيدى .

— أقصد من أين هذا القارب ؟

— من اقصى الجنوب يا سيدى .

— هل جدفت الى هنا ؟

— نعم يا سيدى .

— فى هذا القـــارب .

— نعـــم .

ونظر الجنديان الى بعضهما البعض :

— هل ارتكبت اثما . الم تفعل يا زنجى ؟

قـــال مان :

— اوه . لا يا سيدى .

— ماذا أصاب امرأتك ؟

— انها فى حالة وضع يا سيدى .

فضحك أحد الجنديين :

— حسنا سيكون على اسمى . يازنجى . لقد نلت الجائزة . فطالمــا سمعت بأن الزنجى يفعل أى شىء . لكنى لم اظن أبـــدا أن هناك شخصا غبيا لدرجـــة انه يجـــدف ضد التيار !!

— لكن يا ســـيدى أن زوجتى مريضة . انهـــا مريضة منـــذ أربعة أيام .

— حسنا أبق هنا . ساطلب قاربا بالتليفون ليحملكم .

— حاضر يا سيدى .

صعد أحد الجنديين الدرجات وربط الآخر قارب مان بحبـــل وقـــال :

— يا زنجى أنت لا تعرف كم أنت محظوظ . فقـــد غرق ستة رجال اليوم محاولين الذهاب الى البلدة . فى قوارب تجديف . وهذا أنت قد حضرت تجدف بثلاثة ..

وعاد الجندى الذى ذهب ليتصل بالتليفون . فقال مان :

ــ يا سيدى لو سمحت هل لى ان أحمل زوجتى الى هنـــاك بعيدا عن المطـــر ؟

فهز الجندى رأسه .

ــ انى آسف يا غلام . الأوامر تحتم بألا يدخل هذه المنـــازل الا الجنود فحسب ! ان عليك انتظـــار القـــارب انه قريب حول الركن ولن يغيب كثيرا . لكنى لا أعرف كيف بالجحيم سرت بهذا القـــارب بين هذه المنـــازل دون أن تغرق !

ــ لابد انك عانيت الويل ؟

ــ نعم يا سيدى .

ورأى مان قاربا كهربيا يسبح حول قوس ، وضوؤه الرئيسى يكون قوسا واســـعا والموتور يزأر . ودار فى بحـــر من الرغاء والزبد . كان يقوده جنديان تقطر حلتيهما مطرا .

ــ من المقبوض عليـــه ؟

فقـــال أحد الجنديين :

ــ يا غلام . أمسكت زنجيا هنا يضرب كل شخص . كـــان يجـــدف من أقصى الجنـــوب . ضد التيـــار . هل تســـتطيع أن تتصور هـــذا ؟

فنظر الجنديان اللذان فى القـــارب الى مان وقـــال أحـــدهما وهو يدور بأصابعه :

ــ أنت ؟

فقـال الجندى :

ــ انى اخبرك بالصدق ، الم تفعل هذا يا غلام ؟

ــ نعم يا سيدى .

ــ حسنا ماذا تريد منا ان تفعل ؟ اعطه ميدالية ؟

ــ لا . فزوجتى مريضة . تحمل فى بطنها طفلا أسود ، احملها الى مستشفى الصليب الأحمر .

فنظر الجنديان اللذان فى القارب مرة ثانية الى مان .

ــ لقد تجمهروا هنـاك يا غلام ..

صاحت جرينى ممسكة براس لولو على صدرها :

ــ يا الهى امنحنا الرحمة .

وقـال مان :

ــ يا سيد ، لو سمحت . لا تستطيع زوجتى أن تتحمل الانتظار لمـدة أطول من هذه .

ــ حسنا . أربط قاربك يا زنجى . وهيا نركب .

فأمسك مان بالحبل الملقى اليه وقيده بحلقـة فى نهاية قاربه كان واقفـا عندما قـال احـد الجنود مستسلما :

ــ راقب نفسك يا زنجى .

وزأر الموتور وانطلق القارب للأمام فسقط مان مقـابل جرينى ولولو وبيوى . وتصلب بمجـرد ما بدأوا الرحلة ومال قاربه ، ثم اعتدل القـارب بنفسه . وكانت القيـادة فى المدة البـاقية سائرة راسا فى الظـلام وقد مسـح المـاء بصعوبة من عينيه

قبـــل ان يصلوا الى موقفه ودارت اصابعه بعصبية باحثة فى قناع القارب عن المسدس فوجده ودسه فى جيبه .

— حسنا يا زنجى افرغ حمولتك .

فنهض واقفا وصعد صفا من الدرجات الواسعة .

— هل هذه هى المستشفى يا سيدى ؟

— نعم . رأسا .

وحمل لولو وخطا للخارج وتبعته جرينى . وقد امسكت بيوى من يده . وعندما وصل الى قمة الدرجات فتح الباب بواســطة جندى أبيض آخر .

— الى اين انت ذاهب ؟

— لقد احضرت زوجتى يا سيدى انها مريضة ..

— ابق فى الخارج حتى ترى العلامة .

— حاضر يا سيدى .

وهبط فى صالة نصف مضاءة . والتصقت جرينى وبيــوى بجواره . وشم الرائحة الدافئة للجلد والادوية فجعلته يقشعر . وأخيرا . رأى العلامة :

— للملونين .

فدفع بابا وفتحه ووقف مغمض العينين فى ذهول من الاضواء الساطعة . وجاءت ممرضة بيضاء .

— ماذا تريد ؟

— لو سمحت يا سيدتى .. زوجتى .. انها مريضة .

فالقت الممرضة الملاءة وجست نبض لولو . ونظرت الى مان مستفسرة ثم التفتت سريعا منادية :

ـ دكتور بوروز .

فجاء طبيب ابيض . ونظر فى وجه لولو . كانت عيناها مغمضتين وفمها مفتوحا .

قال الطبيب :

ـ احضر بها الى هنا . الى المنضدة .

فحمل مان لولو . كان وجهها وشعرها وملابسها تقطر بللا . وسقط ذراعها الأيسر من المنضدة . وظل معلقا . انحنى الطبيب فوقها وجذب جفون عينيها .

ـ هذه امرأتك ؟

ـ نعم يا سيدى .

ـ كم كانت مدة حالة وضعها ؟

ـ حوالى اربعة أيام يا سيدى .

ـ لماذا لم تحضرها فى الحال ؟

ـ لم يكن لدى قارب وكان الماء يطاردنى يا سيدى .

فرفع الطبيب عينيه وحك ذقنه ونظر الى مان ، متحيرا وقال :

ـ حسنا يا غلام انها ميته !

ـ سيدى ؟

صرخت جرينى وامسكت ببوى ، وتصلب الطبيب ووضع السماعة على منضدة رخامية بيضاء . وانعكست الأضواء داخل

الحجرة وزار الرعد من بعيد مخلفا سكونا يتخلله صـــوت مطر قوى منهمر .

قال مان :

ـــ سيدى ..

ـــ ٣ ـــ

قال الطبيب

ـــ حســـنا يا غـــلام . لقد انتهى كل شيء . ربمـــا لو كنت قد حملتها الى هنا قبل ذلك بقليل لكنا قد انقذناها هى والطفل ، على اى حال لكن كل شيء قد انتهى الآن . وأفضـــل شيء يمكن أن تفعله هو أن تأخذ عشيرتك الى التلال .

وحـــدق مان فى الوجه الأســـود النحيل فى الملابس المبللة ، فى الذراع التى لا تزال معلقـــة وفاقدة الاحســـاس . وتحركت شفتاه لكنه لم يستطع التحدث وجاءت ممرضتان أخريان وطبيب أبيض آخر ووقفوا . وجرت جرينى الى المنضدة صائحة :

ـــ لولـــو !

فقال الطبيب وهو يجذبها بعيدا .

ـــ لقد انتهى كل شيء يا عمتى .

فانزلقت جرينى الى الأرض ورأسها على ركبتيها صائحة :

ـــ يا الهى ..

ووقف مان الآن كالحجر . لولو ميتة ؟ وبدا كأنه لا يرى الأطباء

والممرضـــات البيض متجمعين حوله . ناظرين اليه . وســـط وسقطت جفون عينيه على سوادها .

قالت ممرضة بيضـــاء :

ـــ أيها الزنجى المسكين .

فحدق مان فيها . وبلل شفتيه وابتلع لعابه . وضـــغط شىء على ركبته فنظر لاسفل . كان بيوى متعلقا به ووجهه الأسود الصـــغير ينطق بالخوف فأمسكه من يده . وســـار الى الحائط ووقف فوق رأس جرينى مترددا . ومست أصابعه كتفها .

قال الطبيب :

ـــ انتهى كل شىء احملوها بعيدا .

فالتفت مان ورأى ممرضتين بيضاوين تدفعان لولو داخل باب فاختنق حلقه . وحاولت جرينى النهوض لتتبع الجســـد فجذبها مان من ظهرها فسقطت على الأرض ثانية . صائحة !

قال مان :

ـــ انتهى كل شىء يا جرينى .

وسأل الطبيب :

ـــ هل أحضرت قاربا يا ولد ؟ انك محظوظ .

عليك أن تواصل الرحيل راسا الى التـــلال . قبل أن يزداد هذا التيار عنفا .

ـــ حاضر يا سيدى .

ونظر مان مرة ثانية الى جريني وتحركت نداه نحوها ثم توقفت

وبدا انه يريد ان يقول شيئا فوق هذا . ان يفعل شـــيئا . لكنه لم يعرف ما هو هذا الشيء قال :

ــ تعالى يا جريني .

فلم تتحرك . فنظرت اليهم ممرضة بيضاء بعصبية . ووقف مان يعصر راحتيه ؟ متخـــذا من الالم الشـــديد تعويضا بالعفو والنسيان . واخذت ساعة تدق . وكان يســـمع تنفس جريني يتحشرج للاعماق فى حلقها . وكان يسمع تنفس الأطباء والممرضات ومن جدران الحجرة يسمع وقع المطر المنهمر . وفى مكان ما رن جرس رنينا ضعيفا وبعيدا . وسمع صوت شىء ينهار . فقفز كل شخص واطلقت احدى الممرضات صرخة قصيرة .

ــ ما هـــذا ؟

ــ اوه . انه مجرد كرسى سقط . هذا كل ما فى الأمر ..

ــ اوه .

ونظر الأطباء الى الممرضات ونظرت الممرضات الى الأطبـــاء ثم ضحكوا جميعا بصعوبة . وساد المكان صمت آخر .

تكلم الطبيب :

ــ هل هذه امك التى هناك يا ولد ؟

ــ نعم . أم زوجتى .

ـ سيكون عليك ان تحملها بعيدا عن هنا

فقال مرة ثانية :

ــ تعال . يا جريني .

فلم تتحرك . فوقف ورفعها لأعلى .

ـــ تعال يا بيوى .

واجتاز الباب وهبط الى الصالة يجر بيوي من ذيل معطفه .

ـــ هاى . انت .

فتوقف . وصعد جندى أبيض .

ـــ أين انت ذاهب ؟

ـــ سأركب قاربى لأحمل عائلتى الى التلال .

ـــ كان قاربك مصادرا . تعال هنا وانتظر لحظة .

ـــ مصادر .. مصا .. د .. ر ..

كنا فى احتيـــاج الى قوارب صغيرة وكان عليهم ان يأخـــذوا قاربك ولكنى سأحضر قاربا بموتور ليحملك ويحمل عائلتك الى التلال . انتظر هنا دقيقة .

فأنتظر وجرينى بين ذراعيه . يا الهى . لقد أمسكوا بى الآن . انهم يعرفون ان ذلك هو قارب هيرت فيلد وربما يعدون العـــدة لحملى بعيـــدا ؟ ما الذى يفعلونه برجل اسود قتل رجلا ابيض فى عراك ؟ لم يكن يعرف . لكن مهما كان الذى سيفعلونه فانه سيكون اكثر رعبا عما حدث فى مرات اخرى . وتأمل فى نفســـه من قدم الى قدم ، كان متعبا اكثر مما يتصور . ورأى لولو راقدة على المنضدة وسمع الطبيب يقول :

ـــ حسنا يا أولاد أنها ميتة .

ـــ والتهبت عيناه وقال :

ـــ يا الهى انى لا اهتم بما سيفعلونه بى . انى لا اهتم ..

ـــ ابى . اين امى ؟

ـ رحلت يا بيوى .

ـ الن تاتى معنا ؟

ـ انها ذاهبة لتبقى مع الآلهة الآن يا بيوى .

ـ بعيـــدا ؟

ـ بعيدا يا بيوى .

فصاح بيوى :

ـ اســكت يا بيوى . كن ولدا طيبـــا الآن . لا تصح انى هنا وجرينى ...

عاد الجندى الأبيض مع الكولونيل

ـ هل هذا هو الزنجى ؟

ـ انه هـــو .

ـ هل كان قاربك الذى بالخارج ؟

فتردد مان .

ـ نعم يا سيدى .

ـ قارب أبيض .

ـ هل أنت واثق أنه كان ملكك ؟

فابتلع مان لعابه وتردد مرة ثانية

ـ نعم يا سيدى .

ـ كم كان يتســـتحق ؟

ـ لا ادرى يا سيدى .

ـــ حوالى خمسين دولارا كما أعتقد .

قال الطبيب مقدما ورقة وقلم رصاص :

ـــ وقع هذه .. هنا .. نستطيع ان نعطيك ثلاثة وخمسين دولارا عندما تستقيم الأمور . كان علينا أن نأخذ قاربك . فقد كنا فى حاجة الى قوارب . لكنى اتصلت تليفونيا طالبا قاربا بموتور ليحملك وعائلتك الى التلال . وستكون فى أمان بهذه الطريقة .

ـــ حاضر يا سيدى .

واجلس جرينى على البلاط وسعل .

ـــ هل هذه امك ؟

ـــ نعم يا سيدى . أم زوجتى .

ـــ ماذا أصابها ؟

ـــ انها عجوز فحسب يا سيدى . فابنتها ماتت منذ برهة . وقد صدمها هذا .

ـــ متى ماتت ؟

ـــ الآن حالا يا سيدى .

ـــ اوه . انى أعرف . ماذا اصابك ؟ هل انت مريض ؟

ـــ لا يا سيدى .

ـــ حسنا . هل تريد أن تذهب الى التلال . فكل عشيرتك من السود ذهبت الى التلال وتستطيع ان تبقى هنا . وتساعد فى بناء الجسر ..

ـ يا كابتن لو سمحته . انى متعب

قال الكولونيل ملتفتا الى الجندى الابيض .

هذا امر حربى ضع هذه المراة والغلام فى قارب واسبح بهما الى التلال اعط هـذا الزنجى بعض الأحذية ومعاطف واقية من المطر واحمله فى قارب الى الجسر .

فحيا الجنـدى .

ـ حاضر يا سيدى الكولونيـل .

ـ يا كابتن . لو سمحت أرحمنى يا كابتن .

فدار الكولونيل على عقبية وسار بعيدا .

ـ انى متعب . دعنى أذهب مع عائلتى لو سمحت .

فحدق الجندى فى مان .

ـ أوه . تعال يا زنجى . ماذا دهاك ، يا للجحيم ؟ فكل باقى الزنوج هنا كيف لا تريدون الذهاب معنا الى الجسر ؟

راقب مان الجندى وهو يذهب الى الباب ويفتحه وينظر خارجا فى المطر . وهمست بعرينى :

ـ مـان .

فمال اليها ويداه على ركبتيه .

ـ اذهب انت الى الجسر . فربما كانت عشيرة هيرت فيلد خارجا فى التلال الآن . اذهب الى حيث قد توجد عشيرتنا لتبتعد عن هنا .

وناداهم الجنـدى .

ـــ تعالوا! . هنا قاربكم .

فهمس مان :

ـــ هنا يا جريني .

ودس الخمسين دولارا التى اخذها من بوب فى يدها .

فقالت :

ـــ الآن . احفظها انت معك

فقال مان :

ـــ خذيها انت . الآن .

ودفع بالنقود فى جيب معطفها .

ـــ تعـــال يا زنجي . فهـــذا القارب لم ينتظر طوال الليـــل من اجلكم .

فأنتشل جريني لأعلى مرة ثانية وحملهـــا نازلا بالدرج ويتبعه بيوى صائحا وكانت السماء تمطر بغزارة . وبعد أن ســـاعدها على ركوب القارب وقف على الدرجات .

ـــ يا الهى ، كم تمنيت لو استطيع الذهاب .

ـــ الكل مستعد .

ـــ الكل مستعد .

ودار الموتور وانطلق القارب فوق المـــاء وضوؤه ينقطع تحت المطر .

نادى بيـــوى :

وداعـــا .

فقال مان وهو غير متأكد من انه قد سمع بيوى .

— وداعا .

وصاح مرة ثانية :

— وداعــا .

— تعال . يا غــلام . هيا لتحضر حذاءك ومعطفك الواقى من المطر . فانك ذاهب الى الجسر .

— حاضر يا سيدى .

وتبع الجندى الى المكتب .

تحدث الجندى الى جندى آخر يجلس بجوار مقاعد خشــبية قائلا :

— جاك احضر حــذاء برقبة ومعطفا واقيا من المطر لهــذا الزنجى واطلب قاربا ليحمله الى الجسر .

وخرج الجنــدى الاول . فوضع مان قدميه فى الحــذاء حتى بلغ ساقيه وارتدى المعطف الواقى من المطر .

وسأل الجندى

— هل أنت متعب يا زنجى ؟

— نعم يا سيدى .

— حسنا ستمضى ليلة قاسية . وهذا ليس كذبا .

— حاضر يا سيدى .

جلس مان ارضا وأراح ظهره الى حائط واغمض عينيه وقال :

— يا الهى .

— وسمع الجندى يتحدث فى التليفون :

— نعم . نعم .

....

— مستشفى الصليب الاحمر .

— الزنجى هنا الآن ينتظر .

....

— وهو كذلك .

وسمع مان السماعة تركز فى موضعها فى عنف ... قال الجندى :

— سيكون القارب هنا فى أى دقيقة . وأنت تستريح . فك هذه الصناديق واخرج محتوياتها على الارض .

— حاضر يا سيدى .

وقف مان وهز رأسه . وملأ الم حاد مقدمة عينيه . ولم يفارقه فذهب الى مؤخرة الحجرة حيث توجد كومة من الصناديق الخشبية وأحضر (مفكا) وابتدأ يفتح رأس الصندوق ثم أخذ يخرج المعاطف الواقية من المطر واحذية المطاط (الكاوتشوك) وعمل آليا ، ببطء مستندا الى الصناديق وهو يشم رائحة المطاط ودخان التبغ . وتحسس المسدس فى جيبه . وتذكر هيرت فيلد وقال فى نفسه :

— ان على ان ابتعد عن هذا بأى طريق . واذهب الى حيث لا يستطيعون العثور على . يا الهى . حافظ على جرينى

حافظ على بيوى يا الهى حافظ على بوب وساعدنى . يا الهى .

وفكر فى لولو وهى راقدة على المنضدة الرخامية وذراعها معلقة بلا احساس ، اسقط مجموعة المعاطف الواقية من المطر التى كان يمسكها ومال عليها منتحبا .

ــ ماذا حدث يا زنجى .

ــ انى متعب يا كابتن . الله يعلم انى متعب .

وانزلق الى الأرض .

ــ عم تصيح .

ــ يا كابتن زوجتى ميتة . ميتة .

فقال الجندى :

ــ عجبا يا زنجى يجب ان تكون مسرورا لانك لم تمت فى فيضان كهذا .

حدق مان فى أحذية المطاط والمعاطف الواقية من المطر .. واخذ يحدث نفسه .

ــ يا الهى لا يمكننى أن انهار الآن فسيعلمون ان خطأ ما قد حدث اذا ظللت اتصرف هكذا ... لا استطيع ان اصرخ على لولو الآن .

ــ ومسح الدموع من عينيه باصابعه .

ــ هل لى ببعض الماء يا كابتن ؟

ــ لا يوجد هنا اى ماء هل انت جوعان .

لم يكن به من جوع لكنه اراد ان يشعر الجندى بتعبه .

ـــ نعم يا سيدى .

ــ هنا سندوتش يمكنك أن تاكله .

ــ أشكرك ، يا سيدى .

وتناول السندوتش وقضمه . فانتفخ الخبز الجاف فى فمه . ففتته وحاول ان يبلله . لو اهتم هذا الجندي العجوز به فحسب . ثم ابتلع ريقه وانزلقت اللقمة الجافة فى حلقه ببطء ، خانقة اياه .

فقال الجندى :

ــ سيجعلك هذا تشعر بتحسن .

ــ نعم يا سيدى .

وفتح الباب .

ــ حسنا يا غلام . هنا قاربك هيا نذهب .

ــ حاضر يا سيدى .

فوضع الساندوتش فى جيبه وتبع الجندى الى السلم .

ــ هل هذا هو الزنجى .

ــ نعم .

ــ حسنا . . اركب يا ولد .

فركب ودار القارب وسوط المطر يلسع وجهه . فمال لأسفل ممسكا بجانبى القارب عندما اندفع خلال الماء واغمض عينيه ومرة ثانية رأى هيرت فيلد آتيا من الشرفة الضيقة وهابطا السلم . وسمع مرة ثانية طلقتى بندقية :

ـــ لكنه أطلق على الرصاص قبل أن اطلقه عليــه .

ثم مرة ثانية رأى لولو راقدة على المنضدة بيدها معلقـــة بلا احساس ثم سمع بيوى ينادى . وداعا وملأه الكره ، وشاهد الجنديين فى المقعد الأمامى . كان راساهما مائلين لأســفل . لا بد أنهما سيصلان فى أى دقيقة الآن .. كانت بندقيته لصــق فخذه . لنفترض أننى أطلقت عليهماالرصاصوأخذت القــارب ؟ لا . لا . فمن الأفضل أن ينتظر حتى يذهب الى الجسر فربمــا يعرف أحــدا هناك . فيساعدونه كان يعــرف أنهم سيفعلون ذلك . وسيكون البيض لابد مشغولين فى هـــذا الجسر لدرجـــة تصرفهم عن التفكير فى مجـــرد أسود مسكين .. وربما استطعت أن انـــام هناك ..

تبـــاطأ القـــارب . وأمامه كانت الانابيب الداكنة للأسمنت وفوق رأســه مائة من بقـــع الضوء ملتصقة بمروحـــة واســـعة صفراء تقـــاوم المطر . وما أن دخل القـــارب بوابة وجـــذب الى الرصيف حتى رأى الاضواء والجنود وسمع الاصـــوات تنادى . ووقف الرجال السود على أطراف الارصـــفة يحملون حقائب الرمل والاسمنت فى القوارب . وكانت خطوط طويلة من القـــوارب تجرى رائحة غادية بين الجسر والاسمنت . فشعر بدوار واهتز القـــارب . واستعد الجنديان لتلقى الاوامر وتقدم ضابط من بعيد وعوى قائلا :

ــــ هل أحضرتماه .

ــــ نعــم .

ــــ حسنا . لقد احضرنا شخصا آخر هنا . تعـــال يا غـــلام أقفز .

فتحرك صبى أسود بعيدا .

وسأل الصبى :

ـ يا سيد هل لى أن أشرب بعض المــاء ؟

ـ للجحيم . لا . لا يوجــد أى مــاء فى أى مكان . اركب القــارب .

ـ حاضر يا سيدى .

تحرك مان الى حجرة وشعر بتحسن . كان مع أهله الآن . ربما لو استطاع الخروج وسمع الضابط يتحدث الى الجنود .

ـ كيف تسير الأمور ؟

ـ سيئة جدا .

ـ كيف تسير ؟

ـ هل تعتقد أنها ستتمدد ؟

ـ انى أخمن بأن هذا ما ستفعله .

ـ هل حــدث تفسخ ؟

ـ انه يتفسخ فى مكانين .

وصفر أحــد الجنود .

ـ حسننا دعه يذهب .

ـ وهو كذلك .

فمضى القارب يجرفه التيار الى المــاء .

ـ هل لك فى سيجارة يا سيد ؟

فالتفت مان ونظر الى الصبى الجالس على جانبه .

ـــ لا : انى لا أدخن .

قال الصبى :

ـــ كم أتمنى لو أقود هذا القارب .

وعندما اقتربا من الجسر استطاع « مان » أن يرى على بعد خطوطا سوداء من الرجال تتحرك كالحيات عند قمة الجسر. وأمامه كان يشعر بالنهر كان يبدا حية باردة تمس وجهه . كان الجسر صفا من الارض الجافة بين صفين من الماء الاسود. وتحرك الرجال على الجسر ببطء ، كالظلال القائمة . كانوا يحملون حقائب ثقيلة على أكتافهم وعندما وصلوا الى نقطة معينة كانت الحقائب تفرغ ثم تجولوا حولهم ببطء بظهور منحنية، ذاهبين لاحضار مزيد من الحقائب . وكانت (الفوانيس) الصفراء معلقة تروح وتجىء تظلم وتضىء عندما يمر أحد أمامها . وعند حافة الماء يفرغ الرجال القوارب المحملة وبجانبها وقف جنود بأسلحتهم . وظل مان ساكنا ينظر وتوقف القارب وانتظر دوره ليفرغ عند الجسر . وفجأة انفجرت ضجة ضخمة . وصرخت صفارة على قمة الجسر كانت الخطوط الطويلة من الرجال تموج فى كتلة سوداء صاخبة . وارتفعت الصرخات فى زئير جماعى . وجاءت أصوات خشنة تطن . كالأزير المنبعث من قواقع البحر ، وفى كل دقيقة كانت الاصوات تزداد ارتفاعا ..يا الهى ، فكر مان . لقد ذهب هذا الجسر وراى القوارب ممتلئة بالرجال وكان هناك رعد كوقع أقدام ضخمة عندما دارت آلات القوارب . كان الجنديان فى المقعد الأمامى يلتفت احدهما الى الآخر .

ـــ من الافضل أن تدور حولك يا جيم .

فدار القـــارب وسار للخلف .

ــ انتظر هذا القارب وانظر ما حدث .

فتباطأ والتصق قارب آخر بهما .

ــ ماذا حـــدث ؟

ــ لقد ذهب الجسر .

ــ مر عليـــه يا جيم .

كتم مان تنفسه وبجانبه كانت الصيحات وفـــوق الصـــيحات كانت صفارة العمل تصرخ وتحـــت صرخة الصفارة كان هـــدير المياه الثائرة يعلو !

ــ ٤ ــ

انطلق القـــارب للخلف . وصرخت صفارة العمل صراخـــا عاليا رفيعا حـــادا يرتعد فى الاذنيه . والدرت حلقـــات الضـــوء الصفراء واهنـــة فى السماء . تباطأ القـــارب عند اقتـــراب الرصيف . كانت هنـــاك ضجة عالية ورجال يندفعون . وصاح ضابط :

ــ جهز القوارب لأعمال الانقـــاذ .

ــ لقد رفعت . الاترى انها رفعت ؟

كان الصبى الجالس بجانب مان يمسه بكوعه .

نظر مان الى المـــاء كانت الأمواج بطيئة تهز القـــارب وتذكر أن المـــاء كان على بعد بوصات تحت مستوى الرصيف عنـــدما

جـــاء اولا وما هو ذا الآن يرتفـــع فوقه . وما ان ابتدأ الرجال في العمل حتى اندفعت قواربهم في المـــاء .

سأل الضابط :

ــ من يستطيع ان يقود قاربا ؟

فقال الصبي :

ــ يمكنني ذلك يا سيدي .

ــ احضر معك مساعدا وتعـــال .

التفت الصبي الى مان قائلا :

ــ هل تريد أن تذهب ؟

فتردد مان قائلا :

ــ نعم ، سأذهب .

ــ تعـــال .

فتسلق خارجا وتبع الصبي الى نهاية الرصيف .

سأل الضابط :

ــ الى أين سترسلهم يا جنرال ؟

ــ أطلق العشرين الأول الى مستشفى الصليب الأحمر .

ــ قـــال الضـــابط :

ــ وهو كذلك . من السائق هنا ؟

فقـــال الصبي :

ـــ أنا السائق .

ـــ هل يمكنك حقا أن تقود قاربا ؟

ـــ نعم يا سيدى .

فقال الجنرال :

ـــ هل يطمأن اليه ؟

فقال الصبى :

ـــ كنت أعمل مع السعيد بريدجز .

قال الجنرال :

ـــ لا نريد مزيدا من الزنوج يقودون هذه القوارب .

فقال الضابط :

ـــ ليس لدينا سائقون بدرجة كافية .

ـــ وهو كذلك دعه يذهب . من التالى ؟

هدفك هو مستشفى الصليب الأحمر يا غلام . اذهب الى هناك بأقصى ما يمكنك من سرعة واحمل أكبر عدد تستطيع حمله من الناس وخذهم الى التلال .

ـــ أترى ؟

ـــ نعم يا سيدى

ـــ هل تعرف الطريق ؟

ـــ نعم يا سيدى .

ـــ ما اسمك ؟

ـ برنكلى يا سيدى .

ـ حسنا . استعد للسير .

فجريا الى قارب وقفزا فيه . واضطرب برنكلى أمام الموتور دقيقة ثم أداره .

ـ كل شيء معد .

ـ حسنا .

سبح القارب خارج مدخل البوابة الواسعة كانا أول من ذهب . وذهبا سريعا ، ضد التيار تحت وابل من المطر . وصارا وسط المنازل قبل أن يتحقق مان من ذلك . وعندما اقتربا من المستشفى بحث مان فى طبيعة الصبى الجالس بجانبه . هل يمكنه أن يساعده فى الابتعاد ؟ هل يستطيع أن يثق فيه لدرجة أن يخبره ؟ لو أمكنه البقاء فى القارب فحسب حتى يحملون حملهم الأول الى التلال لاستطاع ان يفلت . حاول أن يرى وجه برنكلى لكن المطر والظلام لم يدعاه يفعل ذلك . وبجانبه ظلت الصفارة تصرخ وبدت كأن ألفا من الاجراس تدق . ثم توقف القارب قليلا . نظر مان حوله باحثا متحيرا .

فقال :

ـ هذه هى المستشفى .

قال برنكلى :

ـ نعم انها هى .

ثم فهم . كان يراقب درجات السلم العالية التى حمل عليها لولو لكن الماء لم يلبث أن غير الدرجات وكان يستعد لغمر

الطابق الأول . فنظر لأعلى كان نفس الجنـــدى الابيض الذى أدخله من قبل . واقفا فى الحراسة .

ــ ادخـــلا .

فدخلا كانت المستشفى فى صخب . وتحـــت الصالة كان خط من الجنـــود يدفعون الحشود للخلف يستخدمون ظهور بنادقهم . وجاء الكولونيل يجرى حاملا فأسا فى يده .

ــ كم قاربا سيأتى :

فقـــال برنكلى .

ــ حوالى العشرين يا سيدى .

ــ هل هم فى الطريـــق ؟

ــ نعم يا ســـيدى .

ــ عليهم أن يسرعوا . فهذا المـــاء يرتفع بمعدل خمسة أقدام فى الساعة .

والتفت الكولونيل الى مان :

ــ تعال يا غلام .

ــ نعم يا سيدى .

تبع مان الكولونيل صاعدا صفا من الدرجـــات . وتوقفا فى الصـــالة .

ابتـــدأ الكولونيل قائلا :

ــ اسمع أريـــدك ..

لقد ذهبت الأنوار وصارا فى الظلام .

— خيرا يا الهى .

كان مان يستطيع أن يسمع تنفس الكولونيل فى ضربات ثقيلة. ثم لعبت دائرة من الضوء الاصفر على جدار . كان الكولونيل واقفا امامه وبيده بطارية .

قال الكولونيل موضحا بقعة على يسار السلم :

— أحضر اثنتين من هذه المناضد من الخلف هناك وضع واحدة على رأس الاخرى هنا .

وعندما ارتفعت هاتان المائدتان كما قال الكولونيل أعطى مان الفأس قائلا :

— أصعد هناك واحدث فجوة فى هذا السقف .

— حاضر يا سيدى .

وصعد وبحث عن شىء يتعلق به على المائدتين المرتفعتين وعندما صار على القمة . اطلق الكولونيل سيلا من أشعة البطارية على السقف .

— اعمل بسرعة يا غلام ، وعليك أن تخرق فجوة فى ذلك السقف، وبهذا نستطيع أن نخرج الناس منها اذا ضرب الماء القوارب .

— حاضر يا سيدى .

وضرب بعنف لأعلى مع كل ضربة يغمر الفأس بالخشب وفتح ما بين ساقيه على المائدتين حتى لا تجذب لأسفل . ونسى كل شىء الا أنه يجب أن يخرق فجوة فى هذا السقف لينقذ الناس . وحتى مجرد ذكرى لولو وهيرت فيلد غابت عنه : وعرف أن هذا يعنى أن الشبكة الكهربية فى الجنوب الاقصى كانت تهددها المياه.

وما ان رفـــع الفأس حتى غمر العرق كل جســـمه وســـمع الكولونيل تحته قلقـــا ، اطفئت الانوار ثم أضيئت من جديد .

— ثبت هذا النور على يا كابتن .

ان أمامه ستة عروق من الخشب فى السقف ألآن فاســـتخدم يديه وكسرها . فالتقطت أصابعه قطع الخشب المدببة . وســـمع أحـــدا يجرى الدرجات . فنظر لأسفل . كان احد الجنود يتحدث الى الكولونيل .

— انها فوق الدرجات يا كولونيل انها تتجه نحو الطابق الأول .

— ألم تأت الى هنا قوارب بعد ؟

— ثلاثة فحسب يا سيدي .

— مر كل شخص بأن يصعد الى هذا الطابق وحافظ على هدوئهم حتى لو استدعى الأمر أطلاق الرصاص .

— حاضر يا سيدي .

وسمع مان الجندى يجرى هابطا السلم .

— تعال يا غلام . اوسع هذه الفجوة اكثر من هنا . عليـــك أن تقطع فجوة أخرى فى هذا السطح .

وعندما صارت الفجوة كبيرة دفـــع الفأس داخلهـــا ودفـــع نفسه داخل حجرة السطح . كانت مظلمة وكان يسمع المطر يدق وفجأة توقفت الصفارة . فقد كان يسمعها دائما وتعـــود أن يستعملها . لكنه الآن لا يستطيع أن يسمعها وصار الســـكون الذى تخلفه فى عقله يبعث الرعب فى نفسه .

ـــ أريد بعض الضوء هنا . يا كابتن .

واصل القطع . فسأحضر شخصا ليرفع البطارية لأعلى .

كان السطح قد أسهم في قطعة من السقف . وسمع شخصا يتسلق لأعلى بجواره . كان من ورائه جندى أبيض يحمل بطارية .

ـــ أين تريد الضوء يا غلام ؟

ـــ هنا يا سيدى .

وبسرعة مزق فجوة واسعة . وشعر بصاروخ من الهواء . وهب المطر في وجهه وملأ اذنيه فتسلق صاعدا السطح . ونظر تحته . أمامه كانت المستشفى وحفنة من القوارب الكهربية تتراقص في مهب التيار . تتصلب . كانت هناك ضجة عالية . كالصوت الناتج من تحطيم أخشاب البناء . وتمدد منبسطا على السطح وأمسك عروق السقف الخشبية . وخلال ممرات الضوء الصفراء كان هناك منزل صغير يدور كالعجلة وسط المياه العنيفة في تدفقها . وراقبه دون أن يصدق وهو يختفى النظر ، ربما لن أخرج من هنا . . كان هناك مزيد من القوا تزأر وتتأرجح . ثم حدق في الماء المرتفع وكان يمكنه رؤيته وهو آخذ في الارتفاع . وأمامه كانت أسطح المنزل ذات الطابق الواحد غائبة عن الأنظار تماما .

ـــ هنا . ارفعنى لأعلى .

أمسك مان بيد جندى أبيض وساعده في جذب جندى من الداخل وسمع الكولونيل يصيح :

ـــ كل شيء معـــد ؟

ـــ نعـــم يا سيدى .

ـــ أرسل القوارب الى جـــانب المستشفى فانا سنأخذها من السطح . فزأرت القوارب وجاءت ببطء الى جدار المستشفى .

ـــ وهو كذلك . سندخلها للداخل .

وساعد « مان » امرأة بيضاء كانت تجاهد من الداخل . كانت ملتفة فى ملاءات وبطاطين . فلف الجندى الحبل حول جسد المرأة، وعاليـــا حول ذراعيهـــا . فأنت . يا الهى ، فـــكر « مان » ، ان « لولو » فى أسفل الآن فى مكان ما . ميتة . لقد ذهبت قبـــل أن تتركها فى الفيضان ..

ـــ تعال ، يا زنجى ، ناولنى يدا .

ـــ حاضر يا سيدى .

أمسك « مان » المرأة بقبضته ورفعها الى حافة الســـطح . فصرخت وتراجعت للخلف .

ـــ دعها تذهب .

فتركها وأنزلها لأسفل بواسطة الحبل . فصرخت مرة ثانيـــة وتعلقت وهى مهدلة فأعادوا الكرة ، وربطوا الحبـــل ، ورفعوها لأعلى . كان وجهها يدمى ، فقد جرحت نفسها وهى تتسلق خلال الفجوة . كان « مان » يســـتطيع سماع تنفس الجنـــدى آتيـــا

فى خفقات قصيرة كلما أخذ يعمل . وعندما امتلأ القارب بستة أشخاص زأر الموتور . وزحف قارب مزدحم ـ متباعدا ببطء . وكان الماء حينئذ ممتلئا بأشياء طافية . وكانت الأشياء تدور كالدوامة وهى تمر ، وتختفى عن النظر . وكان القارب الثانى ممتلئا . والثالث . ثم الرابع . والخامس . والسادس . وعندما ذهبت النساء والأطفال أخذوا يقللون من الرجال الباقين وسار العمل أسهل وأسرع مع الرجال ، وسمعهم « مان » يسبون بغضب وحينئذ تذكر « لولو » و « هيرت فيلد » وشعر بالدوار ، لكنه سيدفع نفسه وستمر الأزمة .

سأل جندى :

ـ كم تبقى ، يا كولونيل ؟

ـ حوالى الاثنى عشر . هل أحضرت قوارب كافية ؟

ـ كافية تماما .

وعرف « مان » بأنهم سيخرجون سالمين عندما رأى الكولونيل يتسلق من الداخل . وجاء « برنكلى » أخيرا . فصاح جندى :

ـ هذا قارب زائد ، بلا سائق .

فقال « برنكلى » :

ـ هذا قاربى .

فقال الكولونيل :

ـ ثم تذهب بعد ذلك .

لف « مان » طرف الحبل حول مدخنة وربطه ، فأمسكه

« برنكلى » بقبضته وانزلق هابطا ، كالقرد . فتحرك الكولونيل نحو « مان » وامسك كتفه قائلا :

ـــ لقد فعلت خيرا . لن انساك اذا خرجت من هذه المحنة ، تعال وزرنى ، هل تسمع ؟

ـــ سمعا وطاعة يا سيدى .

ـــ هنا ، خذ هذه .

وشعر « مان » بقطعة من الورق المبلل بين اصابعه . وحاول أن يقرأها ، الا أن الظلام كان حالكا .

ـــ هـــذا عنوان امرأة وطفلين يطلبون النجـــدة ، ثم افعـــل ما يمكنك . فاذا لم يمكنك حاول أن تحملهم الى التلال ..

ـــ حاضر يا سيدى .

ونزل الكولونيل هابطا . وصار « مان » وحيـــدا . وفى ثانية اعتراه احساس بمن سيقابل اذا نجا من الفيضـــان . الا يكون من الأفضل أن يبقى هنا وحيدا هكذا ويغرق فى التيار مع «لولو» ؟ ألا يكون هذا افضل من الاستجواب لقتل رجل ابيض ؟

صاح « برنكلى » مناديا :

ـــ تعـــال ؟

فبحث « مان » فوق السطح عن الفأس ، ووجدها ووضـــعها فى حزامه ووضع قصاصة الورق فى جيبه ، واطبق بقبضته على

الحبل ، وزحف الى الحافة فغمر المطر وجهه عندما ثبت قـــدمه فى جدران المنزل . وظل ساكنا لمدة دقيقة وحاول أن يرى القارب .

ــ تعـــال .

فقفز على المقعد ، وتحرك القارب . سعل وتخلص من شعور بالضيق غمره لساعات . كان القارب يقلع ضد التيار .

قال « مان » ممسكا بقصاصة الورق أمام « برنكلى » :

ــ هنا اناس يطلبون النجدة .

خذ المصـــباح الكهربى اليدوى . وركز الضوء على الورقـــة وأنظر اذا كنت سأستطيع قراءتها .

فأمسك « مان » بالمصباح الكهربى .

قال « برنكلى » :

ــ انها فى طريــــق « بيك » انه مكتب البريد . انهـــا زوجـــة « هيرت فيلد » فحـــدق « مان » فى « برنكلى » ، فاغرا فاه ، وســـقط المصباح الكهربى فى قاع القـــارب وارتعدت اصـــابعه وأطارت الريح قصاصة الورق بعيـــدا .

ــ « هيرت فيلد » ؟

قال « برنكلى » :

ـــ سأحاول أن ألبى طلبها .

وهدأ القارب من سرعته ودار ، وأتخذ الأتجاه العكسى ، مع التيار راقب « مان » الضوء الرئيسى يفرض ممرا وبسط المطر « هيرت فيلد ؟ » .

ـــ راقبـــه .

ألقى « مان » بيده فـــوق عينيه كأنما ليتحاشى ضربة . وترك « برنكلى » القارب جانبا على اليمين وأوقف المحرك . فحملهما التيار للخلف . وأمامهما أضـــاء النور الرئيسى دائرة صـــفراء من الخشب المبلل ، كاشفا جانبا من منزل . كان المنزل طافيـــا فى منتصف الشـــارع ، فدار المحرك ، وتحول القارب وســـارا فى الشارع ، عائدين ومارين من حيث أتيا . وبجانبهما كان المنزل طافيا ، يغوص ببطء ، ويبدو أكبر من حجمه . فتوقفا عند عمود تلغراف ونهض « مان » وأمسك بالقارب وربطه بسلك من أسلاك « الكابل » الواقفة فوق رأسه فى الظلام . كان كل ما حوله يبتعد مفرقا ، حافلا بالأمواج . ثم التقطت بقعة الضوء المنزل بأكمله ، كان يبدو كشىء حى ، وهو يغوص ببطء مبتلعا المـــاء والضجة ، وأبوابه ونوافذه ، وشرفته تدور فى النور ثم تذهب فى الظلام . ومر . ودار « برنكلى » بالقارب جوله وعادا الى الشـارع بحذر هذه المرة ، محتفظين ببقائهما فى منتصف التيار . وضرب شىء . فنظرا . سقط كرسى وغرق بعيدا . ودارت أمامهما شجرة مقلوبة فأمسكا بها . وسمعا ضجيجا لكنهما لم يستطيعا تحديد مصدره ، وعنـــدما وصلا مرعى « باريت » تباطآ . وخف المطر وأصـــبح بامكانهما الرؤية بوضوح .

سأل « برنكلى » ؟

— هل تظن اننا نستطيع أداء المهمة ؟

همس « مان » :

— لا أعرف .

واستدار حول منعطف ، واتجها الى طريق « بيك » . فكر في « هيرت فيلد » ورأى المرأة ذات الشعر الأحمر واقفة في النافذة المضيئة . وسمع صراخها . هذا قاربنا ، يا هنرى . هذا قاربنا. تباطأ القارب متجها الى طريق « بيك » . كان لدى « مان » شعور بأنه في حلم :

— لنفترض انتى اخبرت الصبى ؟ واندفع القارب ماضيا في الظلام . اذا أخذنا هذه المرأة الى التلال فسيقبض على .

ورأى أمامه صندوقا يطفو على الماء ثم يغوص ثانية :

— لكن ربما لم يرونى جيدا ؟ لا يمكننى التأكد من ذلك . وقد كان الضوء مركزا عليه مدة طويلة عندما كان تحت هذه النافذة . وهم يعرفون اسمه ، فقد صاح به لهم مرتين ، يجب أن يخبر « برنكلى » . فانى أسود كما هو أسود . فلابد أنه سيكون راغبا في مساعدتى .. وحاول أن ينظر الى وجه « برنكلى » كان الصبى منحنيا ، محدقا بعينيه ، باحثا في سطح الماء الأسود !

— يا الهى ساخبره .

— أسرع القارب كأنه يهرب من شيء :

— أن حياتى هنا مرة ثانية .

انزلق القارب على سطح المـــاء . ابتلع « مان » لعابه ، ثم شعر بأنه لن تكون هناك أى فائدة فى الاعتراف ، فقد انتظر طويلا جدا . وحتى لو تحدث الآن فلن يدور « برنكلى » ويـ عود، فقـــد صارا على مسافة بعيدة جدا . وحدق بعينين مفتوحتين فى الظلمة المـــائية . وسمع الصبى ينادى :

ـــ يا زنجى . يا لقيط لا ، يا الهى . يجب أن أخبره .
مرة ثانية متفاديا شيئا طافيا . فكتم « مان » شـــعوره منتظرا وناظرا ، وأخذ القارب ينزلق فوق المـــاء . ثم سعل وتمنى بكل حياته لو أنه ألقى بقصاصة الورق هذه بعيدا .

سأل « برنكلى » :

ـــ هل تعرف المكان ؟

فهمس « مان » :

ـــ أظن ذلك .

ونظر « مان » الى المنازل ، شاعرا انه لا يريد أن ينظر اليها، بل ينظر الى أى مكان . وكل ما استطاع أن يراه من المنازل ذات الطابق الواحد هو أسطحها . كانت هناك فجوات واسعة بينها، وأزيل بعضـــها . لكن معظم المنازل ذات الطابقين كانت لا تزال قائمة . أدار (مان) عنقه ناظرا الى منزل « هيرت فيلد » ، وهو خائف من رؤيته .

قال « برنكلى » :

ـــ انه هنا فى هذه المنطقة .

أدار « برنكلى » القارب جانبا وترك بقعة الضوء تلعب على واجهات المنـــازل ذات الطابقين ، وأراد « مان » أن يقول له : در وعـــد الى التلال لكنه نظر ، واختنق حلقه ، فنظر ممســـكا بجانبى القارب ، باحثا عن منزل زوجة « هيرت فيلد » ، ليراها بشعرها المتوهج فى النافذة المضيئة .

وأخيرا قال « برنكلى » :

ــ ها هو هنـــاك .

لم يصدق « مان » فى أول الأمر أن هذا هو منزل زوجة «هيرت فيلد » كان الظلام سائدا . وكان يراقبه مربعا من الضوء الأصفر نافذتان مضيئتان والآن ، ها هو ذا المنزل مظلم بأكمله . ربما هم غير موجودين ؟ واندفعت أمنية حارة فى دمه ، أمنية بأنهم ذهبوا. ذهبوا فحسب الى أى مكان . طالمـــا لم يكونوا ليبحثوا عنه . وتمنى لو كانت أجســـادهم البيضاء قد أســـتقرت فى قاع المياه الســـوداء . كانا الآن على بعد عشر أقدام من المنزل ، فهـــدأ القارب من سرعته .

وهمس « مان » :

ــ ربما هم غير موجودين .

فقال « برنكلى » :

ــ من الأفضل أن ننادى .

وضم « برنكلى » يده حول فمه وصاح :

يا سيدة « هيرت فيلد » .

وانتظرا ، ينصتان ، ينظران فى الظلام الى النوافذ المغلقة . ولابد أن « برنكلى » ظن أن صوته لم يصل لأنه نادى مرة ثانية :

— يا سيدة « هيرت فيلد » .

فهمس « مان » :

— ليسوا هنـــاك .

وتنفس برنكلى قائلا :

أنظر . هناك أحد . أنظر ؟ انظر .

كانت النافذة مفتوحة ، فركز « برنكلى » بقعة الضـــوء عليها ، وجاءت رأس حمراء داخلها . فجلس « مان » بشفتين مفغورتين، واستدار الى جانب القارب ، وانتظر أن تنـــادى زوجة « هيرت فيلد » : هنرى . هنرى . ونادى « برنكلى » مرة ثانية :

— يا سيدة « هيرت فيلد » .

لكنها كانت تنـــادى :

— هل يمكنك أن تحملنا ؟ هل تستطيع ان تحملنا ؟

— نحن قادمان . انتظرى ...

وقطع صوته ضجة كبيرة . كانت طويلة هائلة كصوت سقوط الاشجار فى العاصفة . وأعاد الجزر القارب الى الخلف . فسمع « مان » زوجـــة « هيرت فيلد » تصرخ . ولم يعـــد يستطيع أن يرى المنـــزل الآن ، وأضاءت بقعة الضـــوء ممرا فى المـــاء المظلم. فأدار « برنكلى » المحـــرك ودار بالقـــارب حـــوله ، موجهـــا الضوء مرة ثانية الى النافذة . كانت خاليـــة . كانت هنـــاك صرخة أخرى ، لكنها كانت مختلفة .

« قال « برنكلى » :

— لقـد أدركهم المـاء .

وتحرك القـارب للمرة الثانية الى منتصف التيـار . وكـان الضوء على النـافذة الخالية . وكان المنزل يتحرك هابطا فى الطريق . فكتم « مان » تنفسه شاعرا بنفسه يمر بمرحلة سوداء . ووصل المنزل الى منتصف الطريق ودار بعنف . وطفا بعيـدا عنهما ، وأحـدث ثورة فى المـاء وأصواتا صاخبة . ودار مهتزا فى هوة ترتعد ، ثم مال بعنف الى اليسـار وتحطم ، ملقيـا بنفسه بين اثنين من المنـازل الصغيرة . وسمع « مان » الموتور يدور ، كان ينزلـق ببطء فوق المـاء ، ذاهبا نحو المنزل .

وسأل « برنكلى » :

— هل تعتقد انك تستطيع ان تقـوم بهـذا ؟ هل تعتقد أننـا يمكننا انقاذهم ؟

فلم يجب « مان » وصارا مرة ثانيـة على بعد عشرة اقـدام من المنزل . كان التيـار يندفـع خـلال الشقوق محدثا زئيرا راعدا . ومالت الجـدران الخارجية بزاوية قدرها ثلاثون درجة . وقاد « برنكلى » القـارب تحت النافذة مبـاشرة واوقفه ثابتـا بربطه فى عمود من الخشب . وجلس « مان » متجمدا ، محدقا : وفى عقله رأى زوجـة « هيرت فيلد » ، وقطـع شىء ما عنقه ، ورأى شعرها الاحمر ، ورأى وجهها الابيض ، ثم سمع «برنكلى» يتحدث :

— سأمسك القارب وأحاول أن ادخل من النافذة .

وعندما كانت روحه جالسة خـــارج كيـــانه تراقبه ، شعر «مان» بنفسه ينهض واقفا . ورأى الايدى تصل الى حافة النافذة .

— هل تستطيع أن تفعل ذلك ؟ خذ .. هذا المصباح الكهـــربى اليـــدوى .

وضع « مان » المصباح الكهربى فى جيبه ووصل مرة ثانية . فلم يستطع ان يفعـــل ذلك . فظل واقفـــا على حـــافة القـــارب ، سامعا تدفـــق المـــاء تحته . وارتعدت ساقاه ، ورفـــع ذراعيه لأعلى .

— هل يمكنك أن تفعلها ؟

لا ..

واسترااح لحظة ، ناظرا الي النـــافذة ، مفكرا كيف يســـتطيع ان يصل ، ثم تنـــاول الفـــاس من حزامه ووجهه الى النـــافذة ، وامسك بقبضة الفاس وضربه فى النافذة .فدخل حد الفـــأس فى النافذة . وتعلـــق بثقله بالفاس . فحمله . وصعد الى النافذة وجلس على أرض الغرفة . ووقف لحظة فى الظلام المغرق ، وكان هناك شىء يمر على سطح جسمه كله ، كان البرد يحدثه جـــلد مبلل ، فأخـــرج المصباح الكهربى اليدوى من جيبه ووجهـــه الى الارض . وحاول ان ينادى زوجة « هيرت فيلد » لكنـــه لم يستطع . فتفحص مكان الضوء ، ورأى كرسيا محطما ، وســـجادة مطوية، وملابس متناثرة ، ودولابا مكسورا ، وسريرا مقلوبا ، ثم دائرة من الشعر الاحمر وطفلين أبيضين . كانت عيناها مغمضتين . وراس ابنتها الصغيرة ترقـــد على فخذيها . وابنهـــا الصـــغير جالس بجانبها على الارض مغمض العينين فى الضوء .

وصاح بعنف :

— خـــذ امي .

فهز الصوت « مان » وتصلب . فقــد كان نفس الصــوت الذى سمعه من قبــل قائلا : انت يا زنجى . انت لقيط . وعاوده نفس الخـــوف الهائل الذى غمره عنـــدما كان يجــدف ضد التيار .

وأراد أن يجرى من الحجرة ويخبر « برنكلى » بأنه لم يستطع العثور على أحـــد ، وأراد أن يتركهم هنا لتبتلعهم المياه السوداء .

ـــ خذ امى . خذ امى .

رأى « مان » أصابع الطفـــل ترتعد ، واشتعل عـــود ثقاب . واتسعت عينا الطفل . وتحرك فكه لأعلى ولأســفل . وانطفأت الشعلة . وصرخ الطفل :

ـــ انه الزنجى . انه الزنجى !

فأمسك « مان » الفأس . واقترب ، محدقا فى الطفل ، وممسكا الفأس بعنف فى قبضة يده اليمنى.وأخذ شىء صلب يضغط رأسه من الخلف ورآه بأكمله فى ومضة عنـــدما كان يحـــدق فى وجه الصبى الأبيض ويسمعه يصرخ :

ـــ « انه الزنجى » .

ـــ نعم ، الآن ، لو أمكنه أن يستعمل الفأس فلن يبلغوا عنــــه وسيغمرهم ميــــاه الفيضــــان الأسود الى الأبد ويمكنه أن يخبــــر « برنكلى » بأنه لم يستطع العثور عليهم ولن يعرف البيض أبـــدا أنه قد قتـــل رجـــلا أبيض ... وارتعـــد جسمه باضطراب نعم ، بامكانه الآن أن يضرب رؤوسهم بهذه الفـــأس ، ولن يقـــولو أى شىء أبـــدا . ما دامت معـــه بندقيته ، فاذا وجـــدهم«برنكلى» فسيصوب البندقية الى رأس « برنكلى » ، ورأى نفســـه فى القارب مع « برنكلى » ، ورأى نفسه يصـــوب البندقية الى « برنكلى » ، ورأى نفســه فى القـــارب يبتعد ، ورأى نفسه فى القـــارب ، وحيدا .

يسير مبتعدا وتحركت عضلاته وصار الفأس فوق رأســـه وسمع الصبى الأبيض يصرخ :

— « انه الزنجى . انه الزنجى » .

ثم شعر بنفسه مرفوعا لأعلى بعنف ويتعلـــق دائرا حوله كأنمـــا بقوة من الارض ذاتهـــا ووجهه يطير فى بقعة ســـوداء . ومـــلأ أذنيه ضجيج صارخ ، واهتز جسده دائرا ودائرا ورأى المصباح الكهربى اليـــدوى لحظة ، الواحدة تدور ، ثم رقـــد منبسطا ، مذهولا ، ودار حـــوله ، ونهض على ركبتيه مذهولا ، دهشـــا ، مصدوما . وزحف الى المصباح الكهربى والتقطه بأصابع مرتعشة وهمس صوت فى اذنيه مرة بعد مرة . يجب أن أخـــرج بعيدا عن هنا .. وشعر بأنه مأزق . فنهض على قدميه وأمسك بجدار . وسمع صوت المـــاء المندفع وتشر الضوء الاصفر . كانت زوجـــة « هيرت فيلد » راقدة أرضا على وجهها على شـــكل « ٧ » علـــى يمينه ، حيث تلتقى الارض بالحائط . وكان الصبى يزحـــف فى الظـــلام ، صائحا بصوت خافت : أمى . أمى ورأى « مان » الفأس لكنه بدا كأنه لن يستعملها . فهـــو يعلم ما حـــدث الآن فقـــد غاص المنزل ، غاص فى المـــاء الاسود المتدفق . ورأى نفسه كما وقف لحظة من قبـــل ، رأى نفسه واقفـــا بالفأس مرفوعا لأعلى فوق زوجة « هيرت فيلد » وطفليها ...

— هل وجدتهم ؟ قل : هل وجدتهم ؟

فدار « مان » برأسه مرتعدا . كان « برنكلى » ينادى . وملأ البرد جسده « مان » وحول البقعة المضيئة الى الشباك ورأى وجها أسود وبجانب الوجه ممر من الضوء منطلق على ســـطح المـــاء . لا .. لا .. لا يســـتطيع أن يقتل الآن ، لا يســـتطيع أن يقتل ، اذا كان أحد ينظر . ثم سعل ، بثقل كأنما يلفظ نفسه الأخير ، كأنما يترك العالم .

كان « برنكلى » يتسابق الى النافذة ، وظل ينادى :

تعال . ساعدنى فى الدخول . فالقارب عند النافذة . تعال فيمكننى أن أساعدك فى حملهم الى الخارج .

فتحرك « مان » كشخص مخدر نحو الصبى الأبيض وامسك بذراعه . فارتعد الصبى وصرخ :

— أتركنى وحدى أيها الزنجى .

وقف « مان » فوقه ، وكتفاه مرتفعتان ، وشفتاه تتحركان . وغمغم :

— تعال الى القارب .

فحدق الصبى ، ثم بدا أنه يفهم .

— خذ أمى ...

وكطفل صغير اطاعه « مان » وسحب زوجة « هيرت فيلد » الى النافذة . ورأى يدين بيضاوين تساعدانه .

— أحضر أختى .

فأحضر البنت الصغيرة بعدئذ . ثم ذهب الصبى . وتسلق « مان » خارجا فى النهاية .

عاد مرة ثانية الى القارب ، بجانب « برنكلى » وكانت زوجة « هيرت فيلد » وطفلاها فى المؤخرة . والطفلة الصغيرة تصيح متناومة . واهتز القارب . فنظر « مان » الى المنزل ، كان يغوص هابطا فى الماء ، وكانت النافذة التى خرجوا منها منذ لحظة على بعد قدم من مستوى التيار الثائر . ودار المحرك ، لكن هديره اليه من مكان بعيد ، من أعماق صمت ثقيل من اعماق زمن ، بعد ممعن فى القدم . وانزلق القارب فوق الماء وكان هو بداخله

لكنه كان قاربا بعيدا ، وكان شخص آخر فى ذلك القارب ، لا هو وراى الضوء يسير مباشرة فى الظلام وشعر باندفاع القارب عندما شق المساء . لكن لم يمسسه اى شىء من هذه الصور المرئية ، فقد مرت ببساطة أمام عينيه كأشباح متحركة صامتة ، كأشباح ولكنة فى حلم مريض . ولم يشعر بشىء ، فجلس وهو ينظر دون أن يرى شيئا .

قال « برنكلى » :

ـــ لقد أتممت العمل بصعوبة .

فنظر الى « برنكلى » كأنما هو دهش من أن يرى أحدا بجانبه .

قال « برنكلى » :

ـــ اعتقدت انك فقدت عندما غاص هذا المنزل !

كان القارب فى العراء الآن ، ينطلق ضد التيار . وقد توقف المطر .

قال « برنكلى » :

ـــ لقد صرنا فى ضوء النهار .

كانت الظلمة تتحول الى ضوء خفيف .

ـــ أمى .. أمى ..

فهمست زوجة « هيرت فيلد » :

ـــ اسكت .

نعم ، و « مان » يعرف انهم كانوا بجانبه . انه يشعر بهم فى كل جسمه ، واحس على الأخص وكأن شيئا صلبا باردا يضغط

على رأسه ، يضغط بثقل لدرجة انه يمحو كل شيء ما عدا فكرة صعبة محكمة تتملكه :

— لقد أمسكوا بى الآن !

قال برنكلى :

— هذه هى التلال .

كانت المراعى الخضراء ترقد أمامه فى أحواض العشب . وانتشر القارب عليها وشاهد الخطوط العريضة التى تكون الخيام . والدخان يتصاعد لأعلى والجنود يتحركون . ومن أعماق جسده المتعب صعدت صلاة « صلاة صامتة » :

— يا الهى ، انقذنى الآن . انقذنى الآن ..

— ٦ —

كان ضوء النهار ينتشر . وقد توقف القارب . وتوقف الموتور وعندما لم يعد « مان » يشعر بالاقتراب أو يسمع الطنين غمرته حالة عصبية .

قال « برنكلى » :

— حسنا ، لقد وصلنا هنا .

وبخوف شاهد « مان » الجنود يجرون هابطين الى المنحدرات وشعر بالجالسين بجواره ، شعر بعيونهم على ظهره ، ورأسه. وعرف أن الصبى الأبيض الموجود فى الخلف كان يكرهه لدرجة الموت لقتله أباه . وعرف أن الصبى الأبيض على وشك أن يصرخ:

— أنت يا زنجى . أنت يا لقيط .

واقترب الجنود فأمسك « مان » بجانب القارب ، كان « برنكلى » يتسلق خارجا منه . قال « برنكلى » :

تعـــال .

نهض « مان » واقفا ، ومضطربنا قليلا . وفكر :

ــ لقد أمسكو بى الآن .

وقفز على أرض جافة . وخطا خطوة وامسك بفرع شجرة . ونظر حوله وحاول أن يصارع شـــعورا بالضياع . كانت زوجة « هيرت فيلد » تصيح ، قال احد الجنود :

ــ هنا ، خذى هذه البطانية « يا مسز هيرت فيلد » .

سار « مان » راسا نحوهم ، منتظرا أن يسمع في أثناء سيره الكلمة التى ستوقفه . كانت الفراشـــة ترقد أمام عينيه بجمود غريب . كانت كصورة يجب أن تتحطم وواصل الســـير بطريقة عمياء . ووصل الى مســـتوى الأرض ومر بأناس بيض حملقوا بتعجب . واراد أن ينظر حوله ، لكنه لم يستطع أن يحول راسه وبدا جسمه داخلا فى ثوب محكم ، فى تابوت يتحرك كلما تحرك هو . وفكر فيما اذا كان الصبى الأبيض يخبر الجنود الآن . وكان مسرورا عندما وصل الى الخيام . فعلى الأقل ستحميه الخيـــام من أن يروه .

ــ هاى ، أنت . قف عندك .

فكتم تنفســـه ، وهو يدور ببطء . وســـار جندى أبيض نحوه حاملا بندقيته يا الهى ، هذا هو ...

ــ حسنا ، يمكنك الآن أن تخلع هذا .

ــ ســـيدى ؟

ــ انى أقول يمكنك الآن ان تخلع هذا .

ــ سيدى ؟ سيدى ؟

ـ أخلع هذا الحذاء وهذا المعطف الواقى من المطر ؟

ـ حاضر ياسيدى .

ـ وخلع المعطف الواقى من المطر . كان يرتعـــد . واخرج احدى رجليه الى أقصى ما يستطيع اخراجها من الحذاء ، ثم وقف على ركبته اليمنى وأخذ يخلع حذاءه من الرجل اليسرى ، ثم انحنى على ركبته اليسرى بينما أخذ يخلع الحذاء من الرجل اليمنى .

ـ طوح بها هناك فى تلك الخيمة .

ـ حاضر يا سيدى .

وأستمر فى السير مرة ثانية شاعرا بعينى الجندى على ظهره وأمامه عبر مربع من الحشائش ظهرت جماعة السود جماعته . فأسرع فى خطوته وأخذ يحدث نفسه :

ـ ربما أســتطعت العثور على بوب فهنــا الدر مورى .. يا الهى انى أفكر فيما حدث من بيوى ؟ وجرينى ؟

وفكر فى لولو وعيناه ملتهبتان وشق طريقه بمنكبيه وسط حشد من الرجال الســود متجمعين حول مطبخ خاص بخيمة وســعل وخيل اليه أن وزنه يخف . ونظر فى الوجوه السود نظرة الأمل ، عليه أن يبتعد من هنا قبل أن يدفع هذا الصبى الأبيض الجنــود ليجروه على الأرض . وفــكر فى القوارب البيضــاء التى رأها مربوطة عند حافة المــاء .

ـ يا الهى لو أستطيع دخول احدها .

ـ هل لك فى بعض القهوة ؟

كانت امراة ســوداء صغيرة تقف امامه ممسكة بقدح صــغير من القهوة . وشم البخار يتصاعد منه .

سألت المرأة مرة ثانية :

ــ هل شربت قهوتك بعد ؟ فليس هنا من شىء سوى القهوة .

ــ لا يا سيدتى .

ــ خذ هنــا .

فتناول القدح المقدم اليه ووقف يرقب البخار المتصاعد منه . ودارت لتسير مبتعدة .

ــ يا سيدتى . هل رأيت رجلا باسم بوب كوب ؟

ــ الله وحده يعلم يا سيدى فاننا لا نعرف من هنا ومن ليس هنا . لمــاذا لم تذهب الى محطة مستشفى الصليب الأحمر ؟ فهناك يوقع كل شخص باسمه .

لا . انه لا يستطيع الذهاب الى الصليب الأحمر . فسيمسكون به هناك بالتأكيد وسار خطوات قليلة بعد أن احتسى قدح القهوة مراقبا الوجوه البيضــــاء من فوق حافة قدحه . ثم شــــعر فجأة بالاضطراب كأنما كل الذى حدث منذ اربع ساعات لم يكن سوى حلم . انه ليس فى حاجة ليكون خائفا الآن . هــــل هو فى حاجة لذلك ؟ ومجرد تخيله ان كل ذلك كان حلما جعله يشعر بتحسن .

ــ يا الهى انى متعب بالتأكيد .

وانتهى من احتســـاء قدح القهوة ثم نظر الى الخيمة . كانت الحرارة تنتشر فى معدته . نظر حوله مرة ثانية . لم تكن هنـــاك وجوه بيضاء ووقف الرجال السود يأكلون ويتحدثون وود منهـــم أن يساعدوه .. وسار وقدم قدحه طالبا عونا آخـــر . وحدقت المرأة السوداء وعيناها تنظران الى ما وراءه بخوف . وســـمعها تطلق صرخة قصيرة حادة . ثم دفع بعنف من الخلف . وســـمع

صوت الصفيح الناعم عندما أنزلق القدح من بين أصابعه . وضربت مؤخرة رأسه فى الطين .

— هل هو هذا الزنجى ؟

— نعم انه هو . هو الزنجى .

كان ملقى على ظهره ونظر لأعلى فى وجوه اربعة جنود بيض . وأطراف البنادق مصوبة الى صدره . وكان الصبى الأبيض واقفا ومشيرا الى وجهه .

— هذا هو الزنجى الذى قتل ابى .

فأمسكوا بذراعيه واوقفوه على قدميه . نظر اليهم وهو منحن من جانب عينيه . ويداه تحملان رأسه .

— أرفع يديك يا زنجى .

فأمتثل للأمر .

— تحرك وسر .

فسار ببطء وبؤس ويداه مرتفعتان عاليا فى الهواء . وكان أمامه جنديان يقودانه الى الطريق . وشعر بشىء مدبب فى سلسلته الفقرية .

— امض يا زنجى ولا تدر حولك .

وذهبوا به بين الخيام . وسار للأمام وهو يسمع حذاءه وأحذية الجنود تضرب فى الطين وسمع خطوات الصبى الأبيض السريعة على مسافة قليلة منهم . كانت الوجوه السوداء التى مر بها ملتهبة ينظر كل منها فى وجه الآخر وسمع حديثا هامسا . منذ لحظة كان بين هذه الوجوه السوداء التى أصابها الذهول الناظرة فى صمت وفزع الى البيض وهم يأخذون رجلا أسود

مسـكينا بعيـدا عنهم . لم لا يسـاعدونى ؟ انه ليعلم بأنهـم لن يسـاعدوه وليس بامكانهم أن يسـاعدوه تماما كما كان هو فى أوقات ماضـية غير قادر على مساعدة رجال سود أخـذهم البيض ليلقوا حتفهم .. ثم عاد مرة ثانية بين الجنود شاعرا بحدة طرف السلاح فى سلسلته الفقرية . واقتيد عبر مربع العشـب الذى يفصل خيام البيض عن السود ولم تعد هناك الآن سـوى وجوه بيضاء . انه يجذب أنفاسـه بصعوبة .

ـ أنظر لقد أمسكوا عبدا .

ـ تعال لقد أحضروا زنجيا .

كان مدفوعا بين الجنود . وكانت كل خطوة يتقدمها يشـعر بمسدسه يتحرك بخنة على فخده . ودارت فـكرة وظلت تدور فى عقله . وأطبقت على عقله باحـكام كلما فكر فيها . انهـم سيقتلوننى .. سيقتلوننى ..

ـ الى هذا الطريق .

فاستدار . كانت خلفه أصوات . وأدرك أن جمهرة من الناس تحتشـد . ورأى زوجة هيرت فيلد تنظر اليه ورأى شـعرها الأحمر وتوقف الجنود أمامها . فخفض بصره الى الأرض .

ـ هل هو هذا الزنجى يا مسز هيرت فيلد ؟

ـ نعم انه هو .

والتفت حوله ووجوه بيضاء كثيرة . والتهب شعور الجمـع ولوحوا أمام عينيه . كانت هنـاك همهمة مرتفعة من الحـديث ثم لم يستطع التحرك . وكانوا يضغطون عليه .

ـ ما الذى فعله ؟

ـ هل ضايق امرأة بيضاء ؟

— تقول انه فعل شيئا .

فسمع الجنود يحتجون .

— ارجعوا للخلف الآن ارجعوا للخلف .

ازداد الجمع تطويقا له . ووقف الجنود يحيطون بـــه . واصطفين فاصلا بينـــة وبين الوجوه الملتهفة . فأمسك بجنـــدى يدفـــع الذين اجتمعوا ويريدون ان يفتكوا بـــه وقـــد صرخوا فى أذنيـــه :

— اقتلوه .

— اقتلوا اللقيط الأسود .

فقاومهم الجنود صائحين :

— عودوا الى الخلف . لن تتمكنوا من فعل ذلك .

— دعونا نتـــاله .

وانتشلت قـــدماه من دائرة محـــكمة من الوجوه الشاحبـــة وأصابت وجهه ضربة . وثار الجمع قليلا . وسقط بين الأربعة . وشعر بألم حـــاد فى فخذه فعـــرف أنه ركل ، ومن أركان عينيـــه رأى طابورا من الأقدام والسيقان .

— اقتلوا ابن الكلبـــة .

— ارجعوا للخلف . ارجعوا للخلف . والا سنطلق عليـــكم الرصاص . ابتعدوا عنه الآن وتدفق الدم من فمه .

يقول الجنرال ، احضروه الى خيمتى .
فانتشل لأعلى ورفعوا به داخل خيمة . وأمسك جنديان بذراعه . ونظر اليه وجه أحمر بجـــوار المـــائدة . ورأى زوجـــة هيرت فيلد وابنها وابنتها الصغيرة . وسمع خليطا من الاصوات .

— ارجع هؤلاء الناس بعيداً عن هذه الخيمة .
— حاضر يا سيدى .

وصار الوضع هادئاً . وشعر بدوار فأمسك ركبتيه ليمنعهما من السقوط . كان الجنود يهزونه وشعر بالدم الساخن يغمر يديه .

— ألا تستطيع أن تتكلم . أيها اللقيط الاسود . ألا تستطيع أن تتكلم .
— حاضر يا سيدى .
— ما اسمك ؟
— مان يا سيدى .
— ما التهمة الموجهة الي الزنجى ؟
— السرقة والقتل يا جنرال .
— ومن قتل ؟
— هيرت فيلد رئيس مكتب البريد يا سيدى .
— هيرت فيلد ؟
— نعم يا سيدى .
فقال الغلام :
— لقد سرق قاربنا وقتل والدى .
— هل تعترف بذلك يا زنجى ؟
— كابتن . لقد اطلق على الرصاص قبل أن اطلقه عليه . لقد اطلق على ....
— لقد سرق قاربنا . سرق قاربنا وقتل أبى عندما طلب اليه أن يعيده .
— هل انت متأكد انه هذا الرجل ؟
— انه هو يا جنرال واسمه مان وقد رأيته تحت نافذتنا .

— متى كان ذلك ؟
— فى الليلة الاخيرة عند مكتب البريد .
— من رأى ذلك ؟
فقالت زوجـة هيرت فيلد :
— رأيتـه أنـا .
وقـال الغـلام :
— أنا رأيتـه :
— لم أسرق هذا القـارب يا كابتن . انى أقسم بالله بأنى لم أفعل .
— لقد فعلت . لقـد سرقت قاربنا وقتلت أبى وتركتنا فى الفيضـان .
وجرى الصبى الى مان فأعاده الجنود الى الخلف .
ونادته زوجـة هيرت فيلد :
— رالف تعـال هنا .
قـال جنـدى :
— اسكت يا صغير فاننا نستطيع القيام بهذا .
وسأله الجنـرال :
— هل كان معك هذا القارب يا زنجى ؟
— نعم يا سيدى . لكن ..
— من أين أحضرته ؟
فلم يجـب .
— ماذا فعلت بالقـارب ؟
— أخذه الرجل فى المستشفى . لكنى لم أسرقه يا كابتن .
فأمر الجنـرال :
— أحضر الكولونيل دافيس .
— حاضر يا سـيدى .
— يا زنجى الا تعرف معنى هذا ؟
ففتح مان فمه دون أن يتفوه بكلمة .

— هل تعـرف أن هذا يعنى حيـاتك ؟
— لم أقصد أن اقتله كنت احمل زوجتى الى المستشفى ..
— ماذا فعلت بالمسدس ؟

فلم يجب للمرة الثانية . كانت لديه رغبة عنيفة فى أن يخـرج المسدس ويطلق الرصاص ، اطلاقا أعمى . ليطلق الرصـاص ويقتـل فيما هو يفعل ذلك . لكن قبـل أن ينفذ رغبتـه أوقفه صـوت .

— فتشـوه .

فوجـدوا المسدس ووضعوه على المـائدة . كانت هنـاك محادثة ثائرة . ورأى بعض الايدى البيضـاء تلتقط المسـدس وتفتحه فخرجت أربـع رصاصات فارغة .

فقـال الصبى :

— لقـد اطلق طلقتين على والدى . أطلـق عليه مرتين .
— هل ضايقك يا مسز هيرت فيلد ؟
— لا ليس بهذه الطريقـة .
— والبنت الصغيرة ؟

— لا لكنه عاد الى المنـزل وأخرجنـا منـه . ويقول رالف انه يحمل فأسا .

— متى كان ذلك ؟
— مبكرا فى صباح اليـوم .
— لمـاذا عدت الى هنـاك يا زنجى ؟

فلم يجـب .

ـــ هل ضايقك الذن يا مسز هيرت فيلد ؟

فقـــال الصبى :

كان على وشك ان يقتلنا . كان ممسكا بالفأس فوقنا ثم غاص المنــــزل في الفيضـــــان . .

كانت هناك محادثة اخري صاخبة .

حضر الكولونيل دافيس يا جنــــرال .

ـــ هل تعرف هذا الزنجى يا كلولونيل ؟

فنظر مان الى الارض وضرب جنـــدي رأسه .

ـــ كان في المستشفى .

ما الذى كان يفعله هنـــاك ؟

ـــ ساعدنا فى فتـــح السطح .

ـــ هل كان معـــه القـــارب ؟

ـــ نعم لكننا أخذناه وارسلناه الى الجسر . وهنا هـــو ذا قـــد وقـــع علـــى هذه .

ـــ ما نوع هـــذا القـــارب ؟

ـــ قارب تجـــديف ابيض .

فقـــال الغـــلام :

ـــ كان هذا قاربنا .

وتحركت قصاصة الورق التى وقعها مان في المستشفى تحت عينيـــه .

ـــ هل وقعت هذه يا زنجى ؟

فابتلع لعـــابه ولم يجب .

وجرى قلم على ورقـــة .

ـــ خذه الى الخـــارج .

ـــ ايهـــا البيض المتحوننا الرحمة لم اقصد إن اقتله.انى أقسم بالله انى لم افعل .. فقـــد اطلق على الرصاص . كنت أحمل زوجتى الى المستشفى .

ـــ خذوه الى الخـــارج .

فسقط على الارض وهو يصـــيح :

ـــ لم اقصد ان اقتله لم اقصد ..

ـــ متى سينفذ يا جنرال ؟

ـــ خذوه الى الخارج الآن ، من التالى ؟

فسحبوه الى خارج الخيمة . وتدحـــرج فى الوحـــل ، فركله جنـــدي .

ـــ انهض وسر يا زنجى فلم تمت بعد .

وسار كالاعمى وظهره منحن وفمه يقطر دما . وذراعاه قـــد افتقـــدا الاحساس . كان هناك اربعـــة منهم وكان يسير بينهم وملأت الدموع عينيه . وتحت المنحدر على يمينه كان بحـــر يمتـــد ويتماوج من الميـــاه البراقـــة ملتقيا من بعيـــد بالسماء الراعدة. وكانت هناك قوارب . قوارب بيضـــاء قوارب حـــرة . تسير وتقفز كالسمك . كانت هناك قوارب ، وكـــل من فيها يريدون قتله ، كانت الشمس ساطعة تصب اشعة صفراء فى عينيـــه . وســـار جنـــديان امامه . وسمع اثنين خلفـــه . كان يسير بينهم والشمس تلقى اشـــعة صفراء فى عينيه انهم ذاهبون لاغتيالى انهم ذاهبون .. وارتعدت ركبتـــاه وسقط بوجهـــه على الارض ، وبدا للحظة كأنه لا يتنفس . ثم صاح بـــكل قوة فى صدره :

ـــ يا الهى لا تدعهم يقتلونى . أوقفهم عن قتل السود .

ـــ انهض وامش يا زنجى .

ـــ لم أقصد أن افعل ذلك أقسم بالله بأنى لم اقصد .
فانتشلوه لأعلى لكنه انزلق الى الوحل مرة ثانية .

ـــ ما الذى سنفعله بهذ االلقيط الاسود ؟

ـــ سيكون علينا أن نحمله .

ـــ ستحل على اللعنة اذا حملته .

أمسك أحدهم بذراع مان الايمن ولفه حول ظهره .

ـــ يا رب . يا رب . امنحنى الرحمـــة .
ـــ هل تظن ان بامكانك الآن النهوض والسير يا زنجى ؟

وتحامل على نفسه ، وتعثر فى سيره ، وقد تصلبت اوصـــاله من الالم ، صـــاروا الان بين الاشـــجار . وراحـــوا يصعدون منحدرا . ومن خـــلال الدموع راى الخيام الغائمة فى معســـكر الجنـــود .

ـــ يا الهى امنحنى الرحمة ! انه لن يصل الى هنـــاك حتى يموت . هناك ثم تكون النهاية يا اله الرحمة ..

ـــ اخـــرج ســـيجارة يا شارلى ؟

ـــ حاضر .

وأضاءت شعلة ضئيلة وســـط أشعة الشـــمس الصـــفراء المضيئة . وطار عود ثقـــاب أمام عينيه وضرب تموجات العشب الاخضر الرطب . وتحـــول خوفه الى برودة قاتلة للحس . نعم الآن . داخـــل الاشـــجار ؟ نعـــم داخل هذه الاشـــجار . يا الهى انهم ذاهبون لقتله . نعـــم . الآن.سيموت . سيموت قبل أن يدعهم يقتلونه . سأموت اذا قتلونى . سأموت .. وجرى راسا الى اليمين . خـــلال الاشجار فى اتجاه الماء وسمع طلقة.

ـــ يا ابن الكلبة .

فجرى بين الأشــجار فوق الارض المبللة . منصبتا وهو يجرى لطلقات البنادق الحربية . وغاص حذاؤه فى أمواج من العشــب الاخضر . ثم جاءت طلقـــة . سمعها تضرب فى مكان ما . ومرت أخرى بجوار رأسه . وشعر بأنه لم يكن يجــرى بسرعة كافية فحبس أنفاسه ، وجرى ، وجرى . وترك الأشــجار الغائمـــة وجرى فوق أمواج العشب الخضراء المكشوفة . وحـــدق سامعا لعلعة البنــادق الحربية . وانثنت ركبته اليمنى وسقط زاحفـــا على الارض . لكنه تحمل ناهضا على أطرافـــه والتقطت عينـــاه لمحـــة من المـــاء اللامـــع والقوارب البيضـــاء الصائحة . ثـــم أصيب مرة ثانيـــة فى الكتف وظل يزحف الى حـــافة المنحـــدر وأصابت الرصاصات جانبه وظهره ورأسه . وســـقط علـــى الارض وغاب فى العشب الأخضر الندى . وسمع وقـــع الأقدام يضعف . وشعر بشىء حـــار يتدفـــق فى حلقـــه ، وســـعل . ثم شعر فجـــأة بأنه لم يعد يستطيع أن يسمع .

ووقف الجنود من فوقه . قـــال أحد الجنود :

— لن تجرى بعدئذ ، يا زنجى لن تجرى عليك اللعنـــة . لن تجـــرى بعد ذلك .

ووقف أحـــد الجنـــود ودفـــع ظهر بندقيته تحـــت الجســـد ورفعه لأعلى . فتدحرج فى ثقـــل هابطا المنحدر الندى ، وتوقف على بعـــد قـــدم من حافة المـــاء . وتقلبت كف سوداء تتراخى على وجهها وظهرها منسحبة فى التيـــار الداكن ..

كتب المترجـم

(١) **مع الفلاحين** ، ترجمة عن مكسيم جوركى
الطبعـة الأولى ، دار الفكر العـربى ، القاهرة ١٩٥٧
الطبعة الثانية ، دار الجيل ، بيروت ١٩٧٧

(٢) **دفاع عن الزنوج** ، الدار القومية ، القاهرة ١٩٦٥

(٣) **حريق القاهرة أو نذير العاصفة** ، الدار القوميـة ، القاهرة ١٩٦٦

(٤) **مكسيم جوركى — حياته وأدبه** — الدار القومية ، القـاهرة ١٩٦٦

(٥) **مع نجيب محفوظ** ، الطبعة الاولى ، وزارة الثقافة السورية، دمشق ١٩٧١
الطبعة الثانية ، دار الجيـل ، بيروت ١٩٧٧

(٦) **فى الأدب الليبى الحديث** ، دار الكتاب العـربى ، طرابلس الغرب ١٩٧٣

(٧) **الالتزام والثورة فى الأدب العربى الحديث** ، دار العودة ، بيروت ١٩٧٤

(٨) **أدب المعـركة** ، دار الجيل ، بيروت ١٩٧٤

(٩) **البطل الثورى فى الرواية العربية الحديثة** ، وزارة الثقـافة السورية دمشق ١٩٧٧

(١٠) **فن الرجل الصغير فى القصة العربيـة القصيرة** ، اتحـاد الكتاب العربى ، دمشق ١٩٧٨

(١١) **توفيق الحكيم اللامنتمى** ، دراسة فى فكر الحكيم السياسى ، دار الموقف العربى ، القاهرة ١٩٧٩

(١٢) **أدب أكتـوبر** ، دار آتون ، القاهرة ١٩٨٠

(١٣) **أضواء جديدة على الثقافة العربية** ، دار رع ، القـاهرة ١٩٨٠

تحت الطبـع :

(١) أدب البحـر .
(٢) الرواية السـياسية .
(٣) نحـو ثقـافة عربية أصيلة .

مشهد من الجنوب الأمريكى

« خارج المزارع والمستنقعات ، فى اعماق الجنوب ، تأتى هـذه القصص الدامية لنضال الزنوج السلمى ضد خشونة ووحشية عالم ابيض حقود .

هؤلاء رجال ونساء بسطاء ، ولدوا فى خوف وشبوا فى رعب . هذه حياتهم التى عرفها ريتشارد رايت بنفسه . وقد فر بعيدا عنها . لكن كل ما سمعه أو رآه عن صراع السود الدؤوب ضد البيض قد ضمن صفحات هذا الكتاب المؤثر .

ويلعب كل من التشويق والصدام والرقة والرعب دوره فى هـذا الكتاب غير العـادى . هنا يسـقط العنف ولون من النضال اليائس فى سبيل البقاء ظلهما المروع على حياة [illegible]

انها احدى المواهب الفذة فى الكتابات الأمريكيـة ، السوداء والبيضاء .. » .

« مجلة تايم الأمريكية »

دار الموقف العربى
للصحافة والنشر والتوزيع
٣٨ شارع قصر العينى
ت ٢٣٢٥١ جمهورية مصر العربية